فلاح الجواهري

لحظة العمر الإضافية

مجموعة قصصية

سطور

فلاح الجواهري

لحظةُ العمرِ الإضافية

مجموعة قصصية

فلاح الجواهري

لحظةُ العمرِ الإضافية

Falah Aljawahiri

The Extra Blink Of Life

لوحة الغلاف: فلاح الجواهريي

طبعة ثانية معدّلة لـ (ظهور نبي)

لحظة العمر الإضافية

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى – سنة ٢٠٢٢

ISBN: 978-1-77322--

لا يسمح بإعادة طبع الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والنشر على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر عن رأي الدار

SUMER
Printing, Publishing&distribution

LUXEMBOURG- 2- c Crauthemerstrooss-
L- 3334- HELLANGE
+354671531017

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد: شارع المتنبي
مدخل جديد حسن باشا
هاتف: ٠٧٧٠٠٤٩٢٥٦٧-٠٧٧١١٠٠٢٧٩٠

لحظةُ العمرِ الإضافية

لا صوت لا همس للريح في هياكل الأشجار والعرائش والأكمات حول البحيرة الطويلة، الضيّقة...

من الجانب البعيد لضفافها تلوح بين عتمات الأشجار الضبابية مخايل لأبنية كالحة تبدو مقفرة وكأنها هجرت من أزمان بعيدة... أمشي دون أن أحس لا بضربات قدميّ ولا بهسهسة ألواح الممشى الخشبي الطويل المرفوع فوق مياه البحيرة...

أصل إلى نهايته وأتكئ على السياج الخشبي وأنظر دون مرمى أو هدف غير ما يتراءى أمامي من أشباح وهياكل وظلال ضبابية دون لون أو شكل مميز...

الصدر يضيق والنفس يعسر، وكأن كمّاشة ضخمة تهصر، لا هيكل الأضلع وحدها، بل الروح الذي تضمه...

أفتح أزرار القمصلة على سعتها وكذا ياقة القميص رغم برد صباح الربيع السويدي القارس وأتزحزح من مكاني إلى موقع آخر متشبثاً بحاشية السياج لعلّي أجد نسمة هواء أدفعها قسراً لتفك حصار الكمّاشة الخفّية من على طوق أضلعي.

.. أُفلح في مسعاي أخيراً.. أطلق زفرة عميقة فأُحس بإرهاق شديد يدفعني إلى الإلقاء بنصف جسدي فوق حافة السياج...

أتشبّث بالسياج كيلا ينزلق جسمي كله إلى مياه البحيرة تحتي..

بعد لحظات يرخي هذا الوضع المُعلّق من توتري.

أرى لمعان أشرطة الضوء المتكسّرة فوق مرآة المياه وهي تعكس صورتي المقلوبة المتموّجة، مختلطة بخيالات الدعائم الخشبية الضخمة الرجراجة.. أستعيد وضعي السابق لأتكئ على حافة السياج.

بي رغبة عارمة للبكاء دون أن أجد سبباً يُبكيني ولا منطلقاً لعبرة حرة تجد مسالها في عينيّ.

يعاود ضغط الكمّاشة فعله التدريجي فوق صدري فأفتح أزراراً جديدة من القميص وأوسّع ياقته وأبعدها من على رقبتي

.. أتشبّث بالسياج من جديد جاهداً لأدفع نَفساً من الهواء الساكن الثقيل إلى صدري..

.. أشعر بإرهاق شديد فأنزلق مستلقياً على ألواح الممشى الخشبية العريض.

.. أسمع صريرها المتأوّه من تحتي وأتكئ بظهري على السياج من خلفي.. أروح في إغفاءة قصيرة كالغيبوبة.

كالحلم، يلوح من أول الممشى الخشبي ظلال شبح يتحرك ببطء صوبي..

أنهض من نصف رقدتي وأقف مستنداً على نهاية السياج..

أتمكن بيسر أكبر من السابق من التنفس.. أمعن النظر!!

.. الشبح لإمرأة عجوز تدبّ مستعينة بعكّازها ويكاد جسدها يطبق عليه بتقوّسه.. أبدأ بسماع صرير ألواح الممشى الخشبية وهو يتوضح أكثر باقترابها...

هذا الجسد الذاوي الأعجف المتقوّس والوجه الضاوي بعويناته السميكة لا بد أنه قد تعدّى التسعين من العمر..

بل ربما تجاوز المائة.

أنيقة الملبس كأكثر عجائز السويد، بقبعة تُظهر معظم خصلات شعرها الفضي المعقوص إلى الخلف.

لا أريد أن أكون متطفلاً في متابعة تقدمها البطيء... لا بد وأنها ستقول آنذاك: javla invandrera / أجنبي لعين.

أستدير لأعاود النظر في الفراغ الأجوف الممتد أمامي وأنا القي بثقل جسدي متكئاً على حاشية السياج.

أسمع وقع دبيّ الخطوات وضربات العكّاز الواهية يقترب..

أحس بوقوفها على مقربة من ظهري.. ثم بحركة تشبه التسلل تصبح على مبعدة ذراعين عن يميني...

أظل على سكون وضعي، مستنداً بذراعيّ على السياج وماداً بصري إلى الفراغ القاتم المجهول أمامي.

تصبح فترة الترقب والصمت ثقيلة بعد حين، فادير رأسي قليلاً صوبها وأسترق النظر..

جسمها النحيف يرتمي بتقوّسه على حافة السياج، عكّازها الخشبي معلّق على أحد العوارض قربها.. وجه ضاو بطيات من الغضون وراء عوينات سميكة

متهدلة على الأنف المقوس.. عينان شافتا الزرقة.. رغم آثار مِعولْ الزمن..

فالوجه معتنى به بلمسات مكياج رقيقة.. الخامسة والتسعين.. لا لا..

ربما جاوزت المائة، كل ذلك لم يستغرق عندي أكثر من لحظات من التمحيص الحذر مخافة ألا تلحظ تلصصي.

رحتُ أسرح ببصري في ضبابية المجهول من جديد وبدأت الكماشة اللعينة تعاود هصرها على صدري وكذا إحساس الضياع ورغبة البكاء المتيبس.

- أيها الشاب!

إهتز كياني كله وكأن الصوت مطرقة ثقيلة سقطت على مقربة مني

.. لا بد أنني أنا الشاب المخاطب فلا أحد غيري هنا.

- هل تأتي أنت مثلي كل صباح إلى هذا المكان. واصلت العجوز خطابها.

- بين حين وآخر.. أجبتُ بصوت مرتجف مختنق.

- وهل تراقب مثلي كتاكيت البط الصغيرة، وهي تعوم في صف منتظم وراء أمها، تَبَدلُ ألوان زغبهم، التقاطهم لغذائهم، تغيّرُ علاقة الأم بهم.. كل يوم هنالك شيء يستجّد فيهم.

- ثم أُنظرْ! أُنظرْ!! كيف بدأوا يحاولون وبحذر الغطس وراء عشبة أو حشرة صغيرة.. ثم انظر! الماء وألوانه والأعشاب الطافية والطحالب في الأعماق، مواقع زنابق الماء، وريقات أسهم الماء الطافية، وحتى البردي اليانع هنا وهناك من حولهم يتبدل كل يوم، بل كل ساعة.. كل دقيقة!!

يتبدل بتبدل شعاع الشمس الساقط أو الغيمة العابرة.. هل ترى مثلي هذه التفاصيل وكيف تتغير.. لا شيء أيها الشاب يبقى على حاله...

لعلّ هذه الكتاكيت الصغيرة التي أراقبها تراقبني هي بدورها وترى التبدل الطارئ عليّ وما حولي...

يالروعة الطبيعة!! يالروعة الحياة.

تعاود العجوز متابعتها لتفاصيل البحيرة القريبة.. ثم تسرح ببصرها إلى أبعاد البحيرة فتمسحها بسكون المتعبد.

أسمع زفرة رضى طويلة، ألتفت فأرى العجوز تمسك بحافة السياج بكفيها لترفع رأسها إلى السماء قدر ما يسمح بذلك جسدها المتقوس، ثم بصوت مرتفع نشوان: /Tak goden for den extra momenten som jag liver

شكراً لك يا ربي على اللحظة الإضافية التي أعيشها.

انتفض جسدي كله وأخذتني رعشة أحسستها تسري من شعر رأسي إلى قدميّ.. .. أصحو وكأنما من غيبوبة كدرة لأرى ضوء الشمس الباهر.

.. أكتشفُ ضوء الشمس لأول مرة.

- إلى اللقاء أيها الشاب!

أستدير فأحييها بابتسامة وانحناءة وهي تدبّ ببطء متجهة صوب مدخل الممشى.

تابعتها حتى اختفت في غابة الزان وراء مدخل الممشى.. إختفت كما بعصاً ساحرة خفية كاختفاء أحزمة الشمس المتسللة بين وشاحات وريقات الزان الطرية الخضراء المصفرة المتراقصة في الغابة.

***

غَشَت عينيّ بهرجة ألوان الغابة المتلامعة وأنا لا أزال مأخوذاً بالجنية العجوز القادمة من حكايات (أندرسون) الإسكندنافية فعدتُ مبتسماً إلى موقفي السابق من السياج وأخذتُ أدير بصري في مجالات البحيرة، يمينها بغابة السنديان الكثيفة المرصعة بأكمات من الزعرور وورد أشجار التفاح البري، ثم لأنتقل ببصري بدهشة الاكتشاف الأول..

ها هي أحراش الجانب الآخر وغابته الصنوبرية عاتمة الزرقة تتسلق المرتفع الصخري.. خرائط غيمات شافة تسبح فوقها...

هنالك أبنية ملونة تتسلل من بينها لتطل على البحيرة تتلألأ نوافذها بأشعة الشمس المنعكسة.. إنها بعض مساكن الصفوة الموسرة.

سطح البحيرة سماوي الزرقة تتخلله خرائط زرقة داكنة وبقع أُرجوانية تطفو كالنمش فوقه.. كل شي ساكن فوقها.

يتصاعد ضجيج خفْقُ بجعة وانتفاشتها وطرطشتها للمياه تحتها... يرتفع

جناحاها كشراعين أبيضين منتفخين برياح الإقلاع ..

.. يمخر قارب البجعة بجلال وتصميم صوب أنثاه العائمة قرب الضفة الأخرى.

..نوارس تحوم مطلقة نداءاتها بصخب وأخرى تستجم في خمول على الضفاف.

- كواكْ.. كواكْ.. كواكْ..

البطة ذات الصدر الكستنائي والجناحين المخضرين المزرقين الزمردين، ومن وراءها كتاكيتها الزغبية، اللعوبات السابحات خلفها بصف منتظم، تسأل بغضب من تحتي:

-كواك؟ كواك؟ أليس لديك شيء يُرمى للأكل أيها المشاهد البخيل!... هل هو عرض مجاني؟!

- آسف أيتها الغادة الحسناء، لقد كنت غبياً إذ لم أحمل معي إلا حبوب علاج الكآبة أعدك أني سآتي غداً وبعد غد.. بل كل يوم ومعي ما يلذ ويطيب.

تستدير البطة وتتجه صوب الجرف وخلفها الصف المنتظم السابح بعبث..

.. عند الجرف، الأعشاب والعناكب والحشرات الطافية أكثر كرماً من هذا البخيل المتطفل!

أراقب بتمعّن مسيرة البط وهي تتسلل بين سيقان القصب والصفصاف المائي الطري، وبين الزنبقات البيض، وأسهم الماء الكبيرة الخضراء، تلوح من تحتها الطحالب والأشنات الملونة التي تقضم في شعيراتها الرجراجة أسماك صغار...

بعضها يتلاصف بألوانه فيضيع في المهرجان المائي العميق.

لا أعرف كم قضيت من الوقت وأنا مسحور بما أرى تحتي وحولي قبل أن أعود إلى سكني، ولا أعرف لم كان عليّ ذلك.

اتكأت على السياج ومسحت بعيني وروحي الجذلى، البحيرة وتفاصيلها بنظرات سريعة.

أخرجت من جيبي حفنة من حبوب مضادات الكآبة.

بدأت أُلقيها واحدة تلو أخرى إلى مياه البحيرة وأنا أضحك.

- لعلّ هناك سمكة غبية كئيبة تحتاجها!

خَطوتُ بعزم ونشاط فوق الممشى المعلق صوب غابة الدردار وأنا أدندن بنغم سويدي مرح، حين وصلت لنهاية الممشى، اتجهت إلى أقرب جذع كبير، إستدرت واتكأت عليه وألقيت نظرة أخيرة على (البحيرة الطويلة) وصرخت بصوت عال نشوان:

Tak goden for den extra momenten som jag liver.

***

عائلةُ آل جويران

(١)

طرقع مداس الشيخ عبد الغفور في صمت الزقاق الذي لم يصله بعد نور الفجر إلا بالحد الذي يسمح برؤية معالمه بشكل مغبش.

وكانت أبواب الدور الخشبية العاتمة تبان كأشباح تحاول أن تخترق جدرانها لتقفز إلى الزقاق الضيق الملتوي.. جذل عميق ناعم يلفّ الشيخ وهو يتنصت إلى ترجيع مكتوم ".. وألقوهُ في غيابةِ الجب.."

"كم كانت جدته تعيد في طفولته البعيدة عليه تلاوة صورة يوسف التي يحبها حين يطلب منها إعادة تلاوتها قبل إفطار الفجر، فيختلط صوتها الوادع بوشوشة السماور السحرية".

كان الشيخ قد أتمّ صلاة الفجر في مرقد الإمام بعد أن أكمل استحمامه في حمّام (باب الطوسي) وختمه بدخول (الخِزانة... خزان ماء الحمام الذي يكاد يغلي، إكمالاً لنظافة العرس اللازمة.. لم يكن يجرؤ على هذا الطقس إلا القلة النادرة من المستحمين في المدينة.

لم يستطع دخولها حين زفت إليه بهدوء يكاد يكون سرياً، احتراماً لمشاعر أم علي، رفيقة ثلاثين سنة من دربه المتخم بالأحداث والمصاعب، وأم حفنة من الأولاد والبنات " هم الشباب والشابات.. حمداً لله كلهم خِلفة صالحة "

"حقاً كانت عروسة فَزِعة.. طفلة مرعوبة حين كنت أتقدم صوبها بهدوء، بابتسامة مشجعة، وأرفع عني عمتي وأنزع قفطاني.. شيء لا أدري أمضحك..

كان ذاك أم مؤسف..

لا بل لعلّ فيه شيء من الشفقة وأنا أراها ترتد على الفراش الكبير إلى الخلف، ساحبة اللحاف، بأغطيته الحريرية، لتتكئ بنصف جسمها الأعلى على جدار الغرفة وتنظر بصمت وهلع بعينين مبحلقتين إلى اقترابي..

ابتسمت.. كدت أضحك وأنا أُطمئنها بإشارة من يدي وهزة من رأسي ومتراجعاً ببطء وهدوء.. طفلة!؟ صبية؟ صبية طفلة؟! أحد عشر عاماً..

أكيد لها أكثر من عشرة أعوام.. إنه حَلال الشرع.. لا.. لست ممن يقدم

على اغتصاب.. لن أقدم على ذلك أبداً.

صوت أبيها يرن في سمعي " هي منذورة لك.. هدية للشيخ.. والهدية لا تُرد

يا مولانا آية الله، وقد أتينا بها من الجنوب..

أحلف بحق الإمام الذي قدمنا لزيارة مرقده بعد مسيرة يومين كاملين أنها عروسك نزفها إليك.. والهدية لا تُرد، والرسول صلوات الله عليه قبل الهدية..

يا مولانا.. جزاءنا منك ذريتكما الصالحة..

لا لن أشرب فنجان القهوة قبل أن أبارك لك بالرفاه والبنين وأسمع منك ‘‘على بركة الله’’.

وكررتُ عبارته بعد تردد لم يطل ‘‘على بركة الله’’.

"كانت حلوة كزهرة برية وهي تقف ممشوقة بعباءتها الملفوفة وإطراقة وجهها المتورد وعينيها المسبلتين خجلاً ووجلاً، وما أحلى الخزامة الذهبية الصغيرة عليها وهي تلتمع مهتزة من أرنبة أنفها الرقيق فوق شفتيها المضمومتين بإصرار

... حلوة حقاً.. حلال!! حلال شرعاً".

"ستفرح هذا الصباح بعلبة)حلاوة الهندي (، لم تذق مثلها في الجنوب..

والوشاح الحريري سأضعه قرب رأسها، سأدعها تنام بهدوء.. سأنتظر! لمن حكمتك وصبرك يا شيخ لو لم تكن لذلك! لا بد أن أم علي ستأتي بصينية الإفطار حين تعرف بعودتي من صلاة الفجر".

دلف إلى البراني مجتازاً مدخلاً مشتركاً يشبه النفق بينه وبين الحوش الكبير

وتناهى إلى سمعه صوت أم علي تهيب بابنتها الكبيرة (زهرة) أن تعد صينية إفطار الشيخ وعروسه قبل أن تعد إفطار بقية من في الدار.

كانت الصبية الصغيرة التي نسي حتى أن يسأل عن اسمها، مقرفصة تحت اللحاف العريض، ولا يبان منها غير إحدى جديلتيها..

.. صهباء بشريط براق أحمر وكمّاشة شعر صغيرة زرقاء منمنمة.

وقف أبو علي إلى جانب الفراش سارحاً ببصره في التفاصيل الصغيرة، وكأنه أمام حديقة باهرة الألوان، فسيحة.

انحنى ببطء وحذر.

وضع برفق بالغ الوشاح الملّون وعلبة حلاوة الهندي قرب حافة الفراش منسحباً إلى ركنه من الغرفة، حيث رفوف كتب الفقه العديدة، والقرآن الكريم مفتوح تحتها على حاملته الخشبية فوق سجّادة تبريزية.

تردد في الغرفة ترجيع الشيخ لآيات قرآنية بخفوت يكاد يكون همساً.

***

(٢)

رغم باب البيت المشرع والرواق شبه المظلم بالنسمات الرطبة الآتية من فوهة البئر، متشعب القعر بممرات السن الباردة، ورغم كثرة الأبواب المشرعة للغرفة الطويلة بخشبها الهندي المزخرف والمزججة تيجانها، والتي لا تصلها الشمس إلا لساعة وبعضها عند المساء، فقد كان الجو خانقاً والحر متعباً للجالسين على الفرش الممدود على طول واجهة الغرفة.

– خبرني يا خليل كيف كان أسبوعك الأول وأنت تعود للتدريس من جديد.

سألت أم خليل.

– آه لو تعلمين كم أنا سعيد بهذه العودة. لقد كنت صادقاً تماماً حين كتبت من ميتشغان إليكم قبل أن أعود وقلت إن "مراحيض النجف عندي أحلى من كل أمريكا".

– والمستقبل والمطامح وأنت تسعى قبلها بكل ما لديك من عزم للحصول على هذه البعثة الدراسية التي لم تُتحْ لغيرك؟!

– ومن يعلم المقدر والمرسوم يا أمي.. نزق، نزق الشباب.. وهل الطموح إلا نزق لا نحسب عواقبه.

– دعنا يا خليل. لا القدر ولا المرسوم ولا شين ولا مين، إنها المحروسة (صديقة).

لا تجادل في ذلك يا خليل، هذا هو الذي أنت تسميه نزق الشباب لا البعثة العلمية التي رفستها بقدمك وكان ألف ألف من يتمناها.

– يا أمي.. يا حبيبتي! ألا تريدين سعادتي؟ وها أنا سعيد بعودتي.. سعيد بالحر والغبار والأزقة الضيقة القديمة، بالعمائم والأدعية والمباخر.. بل حتى بأصوات المنادين أمام مواكب الجنائز المتتالية التي تمر عبر زقاقنا وهي تردد "لا إله إلا الله وحده لا شريك له". ثم أنسيتِ منظر أضواء قبة الإمام وأنا أرقبها في الليالي من على سطحنا فتنزاح عني هموم الدنيا.

–وكأني لا أراك في الليل وأنت تدير رأسك تجاه السطوح المعاكسة لقبة الإمام حيث معشوقة الروح التي جذبتك إليها كما المغناطيس من ميتشغان عبر البحار والقارات.

– وهل المحبة عيب؟

– عيب، حين تظهر للعلن فينفضح للناس.

– لكني أريدها على سنة الله ورسوله!

– الكل يعرف ذلك ويعرف سبب عودتك وهذا أكثر من كافٍ لأبيها المتجبر كي يكون سبب رفضك.. قصة العشق مرفوضة عند الكثيرين هنا. وأنت بتصرفاتك وبعودتك أيضاً فضحتها وفضحت أباها وفضحت نفسك.. العشق فضيحة هنا.

– هذا ظلم! لقد فشل في محاولات تزويجها للعديدين ممن تقدموا لطلب يدها، وهو يعرف سبب رفضها. إنه الظلم بعينه... إنه ظالم قاس.

– ولكنه من تريده نسيبك وعمك القادم لا غير. إصح يا ولدي، كفى تعذيباً لنفسك ولنا بل ولها أيضاً.

– بداً والله حتى لو أقضي وأنا أحاول ذلك.. هذا قدري يا أمي، يا أم خليل الحبيبة.

***

(٣)

لم يسعف الشيخ راضي الحظ هذا اليوم وهو يذرع لواوين، وصحن المرقد العلوي، جيئة وذهاباً لساعات ليعقب ذلك وقوفه عند (باب المدينة) قرب مدخل سوقها الكبير حتى المساء لاستقبال الجنازات القادمة...

لم يفلح في أن يحظى بتابوت أو جثة ملفوفة بأعواد السعف، ليقرأ عليها آيات الله البيّنات وهم يلقونها في إحدى حفر (الوادي الكبير)، أو مزرعة البصل كما يسميها شباب النجف العابث.

لا أهل المرحوم، إن كان يصحبه أهل في مساره القصير المتبقي بين (بَسّات) النقل الخشبية الكبيرة والوادي المقفر، يجودون بدرهم أو درهمين لقراءة الشيخ صورة قرآنية أو صورتين على قبر المرحوم، ولا المرحوم ذاته بالطبع، حين يأتي وحيداً على ظهر الحافلة الخشبية، بعد أن ألقى أهله به فوق سطحها في رحلته إلى النجف.

يُمنح سائق المركبة خمسة دراهم، ثلاثة له، واثنان ليعطيها لمن يحمل الجثث المشحونة، ليلقوا بها في أية حفرة من حفر وادي الموت الكبير "غالباً ما يحتفظ سائق الحافلة بأحد الدرهمين حين يجد حمّالاً للجثث يتوسل حتى لدرهم واحد، ليحمل المرحوم فوق رأسه. قد يوفق الحمّال الجائع، فيتفق مع السائق على حمل جثتين أو حتى ثلاث مما قد تنقله الشاحنة ليحملها جميعاً فوق رأسه مرة واحدة، وليركض في الأزقة صوب الوادي الكبير وهو

يحشرج بصوته "لا إله إلا الله... لا إله إلا". لا تباركاً بالله، ولكن لتحذير المارة من الارتطام بالحمل الثقيل.

عاد الشيخ راضي بوجهه المدهمج الشاحب الكالح ولحيته التي بدأت خيوط الشيب تزحف بين شعيراتها المغبرة السواد مهموماً، يجرجر نعليه المهترئين وعباءته المهترئة التي تمسح غبار الأرض وراءه، صوب بيت أبي عباس الكبير، حيث يجد مأواه نزيلاً ضمن نزلاء فقراء آخرين.

عَرج على (باب الطوسي) إذ ذكّره الجوع الذي كان قد تناساه في تجواله، بأن عليه أن يلحق ليأخذ قسمته من خبز أبي الحسن (هبة آية الله أبو الحسن الموسوي إلى فقراء النجف) قبل أن يغلق الخباز بابه.

"لابد أن تجود عليه أصيلة، زوجة الشيخ الكبير، ببعض البصل أو الكراث..."

أشرق وجهه وهو يحمل أربعة أرغفة كبيرة متخيّلاً طعم الكراث والخبز الدافئ حين يتناوله في ركنه الصغير من البيت الكبير.

قد تأخذ زوجة الشيخ (أصيلة) الرأفة فتمنحه فوق ذلك من بعض طبيخها المُعد للشيخ وأولاده.

- حمداً لله، لاتزال الدنيا بخير. دمدم الشيخ وهو يقترب من البوابة الكبيرة المشرعة أبداً.

***

(٤)

– سأحرق البيت.. سأحرقه. نعم أحرقه! أيتها العجوز اللعينة ما لم تعطيني الدينارين، إنه حقي من الصندوق الهندي الكبير الذي بعتيه أمس. أحرقه..

أحرق هذا البيت اللعين.. ها هي تنكة النفط!! أصبها على البيت العتيق.

سيحترق كعود كبريت في ومضة عين، فكلّه أعمدة وأبواب وشناشيل خشبية متقادمة. انظري أسكب النفط هنا... وهنا.. وهنا، وألعن البيت كله وأهله.

كان يدور كالثور الهائج بقامته الطويلة النحيفة ورداءه الملموم إلى سرواله وقد ألقى طاقيته جانباً ليظهر شعره الفاحم المبعثر؛ عيناه الجاحظتان تقدحان باحمرارهما شرراً، ويكاد لسانه يندلق من فمه وهو يفّح ويزأر بالشتائم، ساكباً هنا وهناك دفقات النفط على عتبات الأبواب الخشبية العديدة للغرف المحيطة بباحة البيت الوسيع وعلى قواعد أعمدته الخشبية الطويلة..

– يا يمّهْ!! يا يمّهْ!! استهدي برحمنك. خلي شوية رحمة بكَلبك.. كل يوم وعندنا مصيبة وفضيحة.. وين الله وتحرقني وتخليني أموت واخلص. بعتْ الصندوق الهندي الكبير اللي أحفظ بيه هدومي حتى ناكل منه.. بعد ما ظل أحد ينطيني بالدين.. ماكو دكان لا بالسوق الكبير ولا بالسوق الصغير ولا بسوق العمارة يقبل.. وأخوك من بغداد يوصلّي كل شهر عشر دنانير وآني

أعرف ظروف أبو أسامة الصعبة.. كل ما عندي هي أربعة دنانير؛ نصه للديّانة والباقي يا دوب تكفي خبز لهذا الشهر.. بعت الأكو والماكو.. هاشمياتي، عْصاباتي. حتى عبايتي الجديدة ما بقتْ إلا الجِرود.. تعال أُخذ وأمري لله..

هاك!! هذي كل حيلتنا وأكلنا وشربنا.

ورمتْ العجوز التي أحنت رأسها بمذلة وسقطت عنها عصابة رأسها لتبان شيباتها السَبلة والجديلتين القصيرتين الرماديتين المرميتين إلى الخلف؛ رمت بكيس قماش أسود صغير صوب الرجل الهائج وانهارت باكية واضعة رأسها بين كفيهاوركبتيها وهي تقرفص على حصيرة صغيرة في زاوية الباحة.

وضع حمزة تنكة النفط جانباً.. أرخى جلبابه المحشور في سرواله.. انتصبت قامته النحيفة الطويلة.. رفع رأسه للأعلى وكأنه يتملى نوافذ (الأورسي) المُطّل من الدور الثاني بخشبه المزخرف وشبابيكه الطويلة بتيجان زجاجها الملون.

بعد لحظات صمت لم يكن يقطعه غير أنين العجوز المنتحبة الخافت المكتوم، تقدم ورفع الكيس الأسود الصغير من على الأرض، استل من داخله ورقتين زرقاوين ودسهما في الجيب الجانبي لردائه.

تقدم برأس مرفوع وتعبير رضى بالغ على وجهه، وكأنه أنجز للتو مهمة شاقة عظيمة. انحنى بهدوء ووضع الكيس الأسود الصغير على طرف الحصيرة التي تقعي عليها والدته بأرديتها السود منكمشة كصرصار أسود كبير.

حين ارتدى صايته ووضع عباءته الجز على كتفيه واعتمر طاقيته ووضع

عقاله فوق رأسه، رامياً ذؤابتيه إلى الخلف، وهو ينظر بزهو إلى هيئته في مرآة غرفته، خرج إلى باحة الدار.

تريّث في موقعه لبرهة.. بدتْ على وجهه معالم حيرة حزينة وهو ينظر إلى العجوز المنكمشة الغارقة في أرديتها الفضفاضة السوداء في الزاوية البعيدة من الباحة.

-سأعيد لك هذا المبلغ أول ما أحصل على الوظيفة التي توسط لي فيها الشيخ أبو ربيع.

***

كانت خطوات حمزة في الزقاق وعبر صحن الحضرة العلوية وفي (السوق الكبير) المزدحم، سريعة وهادفة؛ كان ذهنه منشغلاً للحد الذي لم ينتبه فيه إلى تحيات بعض معارفه في السوق.

قرب نهاية السوق التفّ ليدخل أحد أزقته الجانبية الضيقة حيث بعض صناع سِبحْ السندلوس وحليّ الزجاج الملون والنمنم والأحجار الرخيصة، وبعض دكاكين صغار العطارين. وصل إلى مدخل نصف مظلم يشبه النفق، ينتهي بباب خشبي عريض عال متهالك، تزينه مطرقة نحاسية ضخمة صدئة.

طرق الباب فأطل من فتحته المواربة وجه كهل مُلتحٍ.

– أهلاً حمزة.. تفضل. وينْ هلْ الغيبة، صارلك زمان؟

– مشاغل والله حاج سعيد.. مشاغل ومشاكل.

– أحظّرْ لكْ شاي.. قهوة؟

– لا شكراً.. خَبّرني وصلتك البضاعة؟

– البضاعتين..(ابو الكلبجة) و(الأسمر)، والأخير هذا نوعية همدانية مفتخرة، منْ (المَشتي) اللي فاتحتك بقصته، صدقني يا حمزة ما راح يدوخك، دوم وَحدَه، لا زوجة ولا خَلف ولا سَلف، لا عِرفْ ولا وِلفْ، والنجف عنده زيارومقام ولا الجنة، يوفّي تكاليفها بـ (الأسمر) اللي يْجيبَه وياه وما يْجيبْ أكثرمن حاجته

ومصروفه.. والله شلون أسمر!! يكَعد الكيفْ والمزاج! من أحسن الأنواع!

والله صدقني خُويَهْ حمزة وربي، المشتي فقير الله وخوش إنسان.. ما عنده غير سجادته وإبريقه وحضرة الإمام اللي مْعابدهَ ليل نهار. وزيارة كربلا مرات

.. لا (أبو الكلبجة)ولا (الأسمر) اثنيهم ما يقربهم... صدقني ما راح يدوّخكْ، يدفع إلك اللي تريده برهنيّة البراني مال البيت. شْوَكِتْ ما توفّي الرهنيّة وتريده يطلع، يطلع. ورقة بيناتكم لا محامي ولا كاتب عدل وآني الشاهد على العقد وبس.

- خلينا بالأهم حجي فاضل... وين عرق أبو الكلبجة وأريد وياه فُص واحد لو اثنين من الأسمر. ما عندي أكثر حتى أدفع اليوم.

-لا تشغل بالك بالفلوس... تنكة أبو الكلبجة جاهزة ومو فص واحد، كيس من الأسمر بيه عشرين فص، أكثر من ميه وخمسين غرام. لا تشيل همْ اعتبرهم عربون العقد بينك وبين مشتي عباس.. المشتي وفلوسه جاهزة من اليوم وبعهدتي! معقولة أنكتْ بصديقي العزيز حمزة؟! توكل على الله وخلينا نكتب العقد اليوم، ماكو غير المَشتي يحط رجله على عتبة درج البراني حتى تنفك زنقتك. رهنيّة تكفيك زواج من أحلى مَرَهْ تريدها.. حتى مو مَرَه وحْدَهْ، نسوان اثنين تكدر.. توكلْ على الله حمزة وتعال العصر نكتب وياه ورقة العقد.

دعى الحاج سعيد بعد ساعة أحد الحمالين ليحمل تنكة (أبو الكلبجة) المُغطّاة بورق ملون كتب عليه (دبس تمور مارينا الشهير). خرج حمزة خلفه وابتسامة عريضة تعلو وجهه. تلمّس جيب الصاية الجانبي ليطمئن على استقرار كيس فصوص الأسمر في قعره.

"هذا المساء في سرداب السن ونسمات البئر الباردة قنينة من تنكة (أبو الكلبجة) مع قطع الثلج ومزّة الموالح والخس؟؟ أم تعمير النارجيلة ووضع فص من (الأسمر) فوق مجمرتها؟؟"

تكرر هذا التساؤل طوال الطريق المزدحم بالسابلة والمتسوقين وزوار الإمام.

***

(٥)

حين يصل أبو ربيع من الشامية إلى دار ابن عمه أبي أسامة، وهو شخصية سياسية واجتماعية مرموقة في بغداد، ينزع عنه عقاله وعباءته الجز ويستريح لا في غرفة الضيوف، بل في غرفة جلوس العائلة.. نساء الدار لا يلبسن حجاباً في حضوره.. يسارع الجميع في إعداد دلة القهوة التي تكاد تكون خاصة به ثم بترتيب الطعام للضيف العزيز على الجميع، وعلى الأخص أبو أسامة صديق طفولته.

غالباً ما يكون بصحبة ربيع إبنه الشاب اليافع أو إبنته أديبة، صبية الثامنة عشرة الجميلة المرحة؛ كان يصحبها رفيقة سفر مؤنسة والأهم من ذلك، أن يعرضها على أخصائي القلب في العاصمة لعلّ أحدهم يُأمّله في إمكانية شفاءها.

يتربع الجميع حوله في مجلسهم في الغرفة منصتين إلى أخباره عن الأقارب أو عن ذكرياتهم وهم في ضيافته في مزارعه في (الرملة)، وهي أجمل ما أطل على جدول الشامية، بنخيلها الباسق وأشجارها المثمرة العامرة، ودار ضيافتها الفره الواسع على منحدر الشاطئ الرملي.

لم يكن هذا البستان وحده هو مقر ضيوفه من عشائر الفرات الأوسط بل كان (البراني) الوسيع الملحق بداره، بغرفه العديدة وشناشيلها، هو المكان الآخر الذي ما خلا يوماً من ضيف أو عشيرة من الضيوف تحفل به.

كان حين تعوزه مصاريف مستلزمات الضيافة التي يقوم بها، يعمد إلى بيع قطعة من أحد بساتينه أو بستاناً بأكمله ليسدد ما عليه.

لا يظل أحد من مئات أقاربه من آل جويران القاطنين في الحي الذي يسكنه أو الأحياء القريبة دون عشاء أو مأوى، إذ يحرص أبو ربيع، قبل غيره من الأقارب، على كثرة المتنادين منهم لهذا الأمر، ألا يحصل ذلك.

.....

يستمر من في البيت بالعناية بالضيف العزيز ومن معه والاستمتاع بمجلسه وحديثه وتكرار دلال القهوة التي تقدم له، حتى يحضر أبو أسامة من عمله في مركز بغداد محمّلاً بالفاكهة والحلوى، بعد أن وصله نبأ وصول ابن عمه.

حين خلا الجو لهما بعد أن آوى الآخرون إلى مضاجعهم سأله أبو أسامة:

– متى موعدك مع أخصائي القلبية؟

– بعد غد.

– هل تحتاج إلى توصية مني، فلي به معرفة وثيقة؟

– لا بد أنك نسيت أنك من أشار عليّ به، وأنك من أوصيت بي خيراً في مراجعتي الأولى معه قبل سنتين.

– وسأكرر التوصية.

– لا فائدة يا أخي، فلقد آمنت بالمقدر المكتوب. لقد شرح لي وبوضوح مهذب أنها لن تعيش لأكثر من سنة في أغلب الأحوال.. إن نجاح أية عملية جراحية لا يزيد في وضعها الحالي على عشرين بالمئة. وهي ترفض

رفضاً باتاً مثل هذه العملية. لقد أدركت المسكينة قدرها واستسلمت إليه بشجاعة وإيمان. إنها وكما أُحسها في الفترة الأخيرة، متعطشة لأن تنال ما باستطاعتها مما تبقى من حياتها، وليس هنالك الكثير مما أستطيع توفيره؛ شابة جميلة مفرطة الحس والعواطف، يتقدم إليها الخاطبون فترفض بألم وإباء لأنها تدرك مصيرها المحتوم. وافقتُ أنا حتى على ذلك المتصعلك نصف الشحاذ إبراهيم، الذي أعرف أنها كانت راغبة في القرب منه.

– أتعرف يا أبا أسامة أنه كاتب في دائرة البريد ببغداد ويسكن في أحد أزقة علاوي الحلة الفقيرة القذرة غير بعيد عنكم.. إلا أنها وبعد تأكدها من مصيرها، عادت ورفضت الزواج منه حين قدِم أهله قبل أشهر يطلبون القرب منا، بل عدتُ أنا الذي أحاول إقناعها بذلك دون جدوى.

– لا حول ولا قوة إلا بالله. أعجب يا أبا ربيع، أهي مشيئة الله الغفور الرحيم أن يعاني الأبرياء والضعفاء أم أنه إله غيره ذلك الذي يحكم مصائرهم.

– حسبي الله.. حسبي الله... ونعمم الوكيـ. واختنق صوته بالنحيب المكتوم وتهدّل رأسه على صدره المهتز. ثم ساد رنين صمت لفّ الرجلين بصداه وأقفرت باحة البيت وضاعت معالمه في ظلمة الليل البهيم الموحش.

***

عندما فتح سامر عينيه،ولا يزال الوقت مبكراً على النهوض من السرير، لمعت في ذهنه صور أحداث البارحة كشريط فلم متقطع.

ضياع فردة حذاء عدنان في خنزيرة ماكنة الماء في البستان والتي كانت السبب في اكتشاف هروبه مع عصابة رفاقه الأربعة في الصف الأول، وجه المعلمة السمين المحمر الغاضب، وهي تسحبه من أذنه من رحلته عبر ساحة المدرسة المائج بتراكض وتدافع وصخب صغار طلبة التمهيدي والصف الأول وهم ينتظرون خارج صفوفهم توزيع نتائج الامتحان في آخر يوم من المدرسة.

أغلبهم يصك بكفه على الفلوس العشرة المعدّة لفراش المدرسة الذي يقف منتظراً قرب غرفة المديرة.

لم يتذكر خلال استعراضه للشريط أنه أحس بألم صيوان أذنه الذي توّرم من السحب عبر المسافة التي أحسها طويلة، كفترة هجعة القيلولة الإلزامية في غرفة القبو المظلمة في الدار.. ثم تلك اللقطة الرهيبة في الوقوف أمام المديرة المخيفة بمسطرتها التي تحملها كالسيف، وتلسع بها أكف الطلبة المشاكسين أو الهاربين من الصفوف قبل انتهاء الدوام أو الغائبين دون عذر من أهاليهم.

جاءت أم عدنان صارخة شاتمة كل إدارة المدرسة التي تفسح المجال لهروب الصغار، والأهم السماح بضياع فردة حذاء جديد تم شراءه في عيد الأضحى قبل أسابيع معدودة.

لكنه مع تورم صيوان أذنه اليمنى وكفه الأيمن من لسعات مسطرة المديرة الحارقة، فقد كسب الفلوس العشرة المعدة للفراش والتي بقيت في جيب بنطاله القصير، حين سحبته معلمته السمينة زكية، ذات اللباس الحريري الأخضر، الذي يبان من فرجة فخذيها حين تجلس أمام الصغار ليرددوا من وراءها: زيز.. زيزي.. زير.. زيرى.. زيران.. ن، والذي لا يعرف ما الذي تعنيه لا زيز ولا زير ولا حتى ما معنى أن تصرخ المعلمة السمينة أخيراً (إن) وهو مكتوب (نون). سحبته ذات اللباس الحريري الأخضر من أذنه مرة أخرى بعد أن انتهى العقاب وخمد صراخه وعويله أثناء لسع المسطرة ليديه "":

– " موآني اللي ضيّع القندرة والله مو آني ".. سحبته عبر باب المديرة حيث يقف فراش الـ(العشرة فلوس) إلى باب المدرسة، حيث سوق الخضار والعطارين، ودفعته بقوة في ظهره خارج الباب فسقط على وجهه قرب بائع اللبن وهي تصرخ خلفه: لا تجي للمدرسة على النتيجة إلا وأهلك وياك.

وهو لا يزال منبطحاً في قاذورات الزقاق أمام باب المدرسة دارت في ذهنه: ""الله كم هو حلو الخلاص من مسطرة المديرة اللاسعة.. والخلاص من زكية ذات الفخذين السمينين واللباس الحريري الأخضر... ومن حبسة المدرسة من الصبحية للعصرية".

حين نهض نافضاً الأوساخ العالقة بملابسه تجهم وجهه للحظات؟!:

""وعقوبة البيت المنتظرة؟!""

لم يطل تجهم سامر لما ينتظره في البيت، بل سرعان ما أخذ يتهادى بمشيته بحرية وسط سوق الخضار وعبر الزقاق الطويل الذي يليه. لحظات يقطع المسافة ببطء وسرحان، وأخرى راكضاً بفرح مسافة قصيرة مردداً ‘‘هيه! هيه!

عطلة. هيه! هيه! ’’

‘‘أبويَهْ بالشغل لليل، وأمي هي اللي راح تجي وياي للمدرسة... سأقول لها هو اللي ضيع فردة قندرته واحلف إلهَ بالحسين والعباس أبو راس الحار.

كُلهَ كفختْ لو كفختين، وإيد أمي مو قوية مثل إيد أبويه... وهي ما تعرف تستعمل الخيزرانة مثله. آخ، آخ هي مرة واحدة! بس لليوم كلما أتذكرها يلسعني ظهري".

***

تحوّلت صور سامر من فوق مخدة سريره إلى وجه أديبة الجميل المبتسم وشعرها الطويل الفاحم... أشرق وجهه بابتسامة عريضة وهو يتخيلها منحنية عليه تداعب شعره وتقبله على خده قبل أن تسحبه من ذراعه لينهض من فراشه كما في كل مرة تأتي فيها إلى بغداد سواء أكانت مع أبيها الشيخ أبو ربيع لمراجعة أطباء القلب، أم تأتي لوحدها للتسوق والنزهة. وسينعم برفقتها في تجوالها أثناء بقاءها كالمرات السابقة. وتذكر كم تغمره أثناء التجوال بالهدايا والحلوى.

لقد وصلت من الشامية أمس مساء وكم ضحكتْ على قصة الهروب من المدرسة مع عصابة من الصغار وعلى اكتشاف الجريمة بضياع فردة حذاء عدنان. ثم كانت الوسيطة في أن يكتفي الوالد – أمامها – بعقاب التهديد والتوبيخ الشديد وقطع عشرة فلوس الغد (يوميته النظامية).

جهّزت أديبة (بقجة) ملابسها والمناشف اللازمة، أما الصابون والأمشاط وعددٍ أخرى فقد وضعتها في(البطيخة)النحاسية مع بعض الفاكهة. أما سامر فقد جهزت له والدته بقجة صغيرة لملابسه الداخلية ومنشفة صغيرة.

- ها خلي نروح للحمام!

-ننتظر جارتنه أنيسة ونروح سوية. أجابت أديبة سامر المتلهف على أجواء حمام النسوان الذي سبق أن صحبته أديبة إليه في المرة السابقة.

لم يكن (حمام سوق حماده) بعيداً عن زقاقهم، ولم تكن صالة استحمامه المضببة بالبخار الكثيف والرائحة اللزجة الشبيهة برائحة المطابخ العتيقة

مكتظاً بالمستحمات؛ امرأتان سمينتان إحداهما يندلق كرشها البض من فوق مئزرها والثانية تجلس على صخرة مربعة فتتهدل أطراف من عجيزتها على حواشي الصخرة المسوّدة؛ صبية نحيفة تقف قرب أحد الأحواض دون مئزر تدلق ماء الحوض على شعرها المنسدل؛ امرأة تدلّك ظهر صاحبتها المنبطحة على وجهها بكيس أسود.

ألقتا مئزريهما حال دخول الصالة المضببة الحارة.. تهدّل شعرهما.

"أديبة شعرها فاحم سبل طويل يصل إلى عجيزتها وله لمعان بهيج... أنيسة شعرها كستنائي داكن وهو أقصر من شعر أديبة وأخشن؛ وجه أديبة أكثر وداعة وجمالاً من وجه أنيسة؛ ابتسامة أديبة طفولية مرحة، ضحكة أنيسة بين الحين والحين صاخبة وخشنة بعض الشيء؛ جسد أديبة ونهداها المرفوعان وخصرها وفخذاها الملفوفان أجمل من جسد أنيسة الممتلئ وأشياء أخرى يصعب وصفها تجعل أديبة هي الأحلى."

"أديبة.. أديبتي أجمل". فرح سامر وهو يتوصل إلى نتيجة مقارنته تلك.

أنهيا استحمامهما بعد أن خرجا من تلك الغرفة الصغيرة في جانب الصالة والتي مُنع سامر من دخولها – رغم صغره – ظهرا عند خروجهما من الغرفة بتغير شدّ انتباهه، أكثر بريقاً، ربما؟ أقل شوائب؟ لم يعرف سبب ذلك التغير إلا بعد حين.

***

اصطحبته في المساء إلى سينما الحمراء الشتوي. جلسا في الألواج الخاصة في الطابق الأوسط. كان اسم الفلم (إسماعيل ياسين). حالما أطفأت الإنارة نهضتْ من مكانها في المقعد الأمامي المجاور لتجلس في أحد المقعدين الخلفيين.

بدأت تداعب شعر رأسه من هناك.. بعد دقائق على إطفاء الأنوار أحسّ بانضمام شخص جلس إلى جانبها في الخلف. دار همس متقطع.. واصل سامر متابعته للفلم وحركات الممثل المضحكة، ولم يعد ينتبه إلى ما يدور خلفه، وقبل أن تعود الإنارة قبل نهاية الفلم بقليل سمع صوت زائر اللوج في الخلف.

- باجِرْ العصر، أنتِ تعرفين العنوان.

- بالطبع عيوني إبراهيم. كان همسها خافتاً وهي تجيبه.

في الطريق إلى البيت، اشترت له بعض الهدايا وملئت جيوبه بالحلوى التي يحبها.

في صبيحة اليوم التالي سار معها يداً بيد في سوق المغايز.

اشترت أوشحة وعطوراً، ومن محلات شارع الرشيد الكبيرة، قمصاناً رجالية وأربطة عنق وملابس رجالية داخلية وحقيبة جلدية صغيرة أنيقة وضعت فيها الهدايا ودست بين صفوف الألبسة رزمة من الأوراق النقدية الحمراء.

وكما في طريق العودة من السينما قبل يوم، كانت هنالك أقلام ملونة وكراريس رسم وحلوى تملأ الجيوب.

بعد قيلولة الظهيرة، أكملت أديبة زينتها واستعدادها للذهاب إلى الخياطة بعد أن أخبرت أهل أبي اسامة بذلك... نظر سامر إليها مشدوهاً ببهاء مظهرها وأحس بفرح وإعجاب لم يحسه تجاه أي شخص ممن حوله من قبل..

ودّ لو أنها كانت مقام أمه أو أخته الكبيرة لتبقى أبداً في دارهم ليراها كل يوم وليعيش جنة النزهات والسينمات والهدايا وقبلة الصباح المنشطة قبل النهوض من السرير.

أشارت إليه برأسها وطارف عينها إلى الباب..خرج مسرعاً جذلاً.

ما إن خرجت إلى الزقاق حتى وضع يده في يدها للسير سوياً. أوقفت عربة حنطور، راعتْ أن تكون نظيفة وأنيقة وأشارت إلى الحوذي بتفاصيل العنوان والانتظار المطلوب لحين العودة.

لم تكن المسافة التي قطعها الحنطور قصيرة؛ عَبر شوارع عريضة، التف إلى أزقة أحياء سكنية نظيفة، اجتاز مناطق مزدحمة بالأسواق الشعبية وعربات بائعي الخضر والمأكولات الجاهزة الرخيصة، ثم انحرف إلى زقاق قذر تفوح من جدرانه رائحة البول المتقادم ويصخب فيها أطفال وصِبْية بملابس متسخة شبه بالية، يتوسط الزقاق خارور المياه القذرة للبيوت المرصوفة إلى بعضها كما ترصف العلب الفارغة. طلبت منه التوقف.

كان باب البيت الذي وقف الحوذي إلى جانبه مواربا.

نزلت من العربة وبيدها الحقيبة الجلدية التي اشترتها أمس وطلبت من سامر الانتظار حتى تكمل الخيّاطة عملها. أخرجت من جيبها علبة نستلة كبيرة وسلمتها، ليستمتع بها أثناء الانتظار.

دلفت إلى الدار دون أن تطرق الباب وأغلقته وراءها.

لم يرتح للانتظار خارج الدار، رغم الهدية اللذيذة.. كان ذلك إحساساً جديداً غريباً عليه رغم أنه قد مرّ بحالات انتظار مماثلة سابقة لآخرين.

حين مر وقت أحسه طويلاً، ضاق بجلسته في العربة فنزل عنها ذارعاً الزقاق الطويل الملتوي جيئة وذهاباً مرات عديدة ولم يكن مرتاحاً لكثرة الصبية ممن يصادفهم بالزقاق وهم في ملابسهم الرثة ينظرون إليه.. ينظرون بقرف إلى الصبي النظيف ببنطاله القصير المكوي وحذاءه غير المتسخ وغير المرقّع وشعره الذي لا تلطخه بقع الطين.

عاد وجلس بعض الوقت في العربة التي استغل الحوذي فيها الوقت ليخرج كيس علف من تحت قدميه ويضعه في رأس الحصان ثم ليذهب بدلو فارغ فيملأه بالماء ليسقي حصانه.

ضاق الحصان ذرعاً بدوره من الانتظار فأخذ يدك بقوائمه الأرض وهو يحاول أن يزحزح العربة عن مكانها.

لم يحس برغبة في أن يتذوق علبة النستلة التي ظل ممسكاً بها طوال الوقت دون وعي منه، حتى أصبحت عجينة رخوة ملفوفة في الورق اللماع الملون.

رماها جانباً بانزعاج إلى زاوية من الزقاق.

لاح له من مكانه في العربة شباك الدار الذي لم يكن مغلقاً، وكانت تغطيه ستارة من قماش قديم مورّد تهتز بنسمات الزقاق القليلة.

قاوم فكرة تكرار النظر إليها.. لم يستطع ذلك بل عاد فأمعن النظر فيها.. تسلل من العربة ببطء وكأنه مقدم على عمل محذور.

اقترب بحذر من ستارة النافذة؛ بيد مرتجفة أزاح ببطء جانباً منها، تلصص النظر إلى ما وراءها.

لم يكتشف شيئاً غريباً أو مفزعاً مما توقعه من حذره وخشيته.

شاب نحيف طويل القامة لا يرتدي غير سرواله الداخلي، تقف إلى جانبه أديبة في (أتكَها) الحريري الأزرق، دون أي شيء آخر فوق جسدها المتراءي من خلاله.. يبدو وكأنها تساعده في المطبخ بذراعيها البضّتين العاريتين في وضع إبريق الشاي على النار.

لا شيء غريب فكم من مرة رأى أباه وأخاه الأكبر يدوران بسروالهما في البيت، وكذا نساء أخريات يدرن بملابسهن الداخلية، وأية غرابة في ذلك؟! بل شاهدهن عاريات كما حصل في الحمام وكما شاهدها هي كذلك، بل وأمعن واستمتع بالنظر إلى ذلك أمس.

ولكن ورغم كل هذا اللاغريب، لفّته حيرة شديدة غامضة!، ثم قام بردّ حاشية الستارة على عجل وكأنه اقترف ذنباً؟!

لِمَ أحس فوراً بعدها بألم يخزُ صدره وتضيق به روحه؟!

لِمَ شعر بذلك الحزن العميق القاسي الذي لم يشعربه من قبل أبداً؟!

***

إنها الثالثة
بعد منتصف السابعة والثمانين

نفس الساعة ونفس الموقع من البادية وسدّة القطار الترابية المهدّمة ذاتها وطريق السيارات المهجور.

يلوح من بعيد، كما عبر سراب، شبح مستشفى(بيرفو غرادسكايا) ومن خلال خطوط البناية العتيقة المتموجة تبرز خارجة منها بوضوح معالم غرفة خالية خافتة الضياء بسرير معدني فارغ طويت فرشه وأغطيته.

كنت أخفقت في بحثي عن الليرة الذهبية التي أخفيتها في رَحلة من أحد صفوف مدرسة مهجورة.. أترك البحث في المدرسة، وأخرج راكضاً.

وجدتُ، وأنا أتوجه صوب البادية، فوق أعالي خرائب الأزقة المهجورة، الرَحلات معلقة على هيئة طائرات أثرية ذات جناحين، تعوم في الفضاء فوق الأطلال، دون طيار أو تلميذ يجلس خلفها.. أصل أخيراً لفضاء البادية الرحب.

أنا شاب العشرينات، أركض ممسكاً بحزمة أوراق بيضاء، أخي الكبير ينكفئ على وجهه ببدلته الأنيقة البنية فوق الرمال، يُرتّب أكوام ليراته الذهبية في صفوف متوازية طويلة، لا يلتفت نحوي..

أتقدم صوبه، أقف معتذراً عن عدم قدرتي على تسديد دين الليرة الذهبية، التي اختفت مع رَحلات المدرسة الطائرة فوق الأطلال.

لا يعيرني اهتماماً. يستمر في رصّ صفوف الليرات اللامعة فوق الرمال.. أنصرف عنه.

أركض وأسمع صوت أنفاسي اللاهثة تختلط بعواء ريح البادية المقفرة. لا أُفلح إلا بعد جهد في تسلق سد القطار الترابي للوصول إلى الطريق الأسفلتي المهجور وراءه. ساعة (اللونجين) الضخمة، المعلقة في الفضاء من سيرها الجلدي، بلا عقارب. أحاول رغم ذلك وأنا أرفع بصري مرات في محاولة عقيمة لاستشفاف الوقت هل بقي من الزمن ساعة أو ساعتين لألحق بموعدي في بيرفوغرادسكايا؟

أركض بيأس، ورغم الإجهاد وحشرجة الأنفاس المتزايدة وتسارع الركض، تبقى المسافة هي هي بيني وبين الطريق المهجور.

ألهث من التعب.

أبقيت ساعة أم ساعتين على الموعد؟!

عليّ أن أصل بأي جهد أو ثمن.. إنها مسألة حياة أو موت.. يجب أن أصل.

أتصبب عرقاً وأنا أحاول التقاط أنفاسي بصعوبة وكأن الهواء يصلني عبر خرم إبرة.. أسمع عواء ريح البادية الموحش.. أرى غبارها العاصف ينزع عن قبضتي حزمة الأوراق وينثرها فتتطاير. أُتابع الأوراق المبعثرة في الفضاء ببصري وأنا أقف مخذولاً دون أية محاولة للّحاق بها.

يجب أن أستجمع قواي وأجري من جديد صوب المستشفى.. يجب.. يجب.

تخذلني قواي، أجهش بالبكاء بصوت مسموع.

أفتح عينيّ على ظلمة الغرفة الساكنة، أستنشق الهواء الثقيل بعمق، آخذ نفساً آخر أعمق وكأني أؤكد لنفسي أنني لا أزال أستطيع التنفس.

أمسح وجهي المتعرق بمناديل ورقية..أتناول قدح الماء، كل شيء مهيئ لكوابيس الليل ولهذا الحلم الكابوسي المتكرر بالذات. أكنت أصل إليها في تلك الغرفة الخالية الموحشة مغبشة الضياء؟ هل كنت أصل في اللحظة الحاسمة لو أني جريت عبر الشوارع بشكل أسرع، أو أن سائق الباص جَهدَ لتجاوز عرقلة السير المزدحم وأنا أقف إلى جانبه أحثه على ذلك.

أسحب كرسي العجلات قرب السرير، أتسلق مقعده، أقترب من الساعة الضوئية ببصري الشحيح.. إنها الثالثة بعد منتصف الليل.

***

أنهيت نوبتي متأخراً نصف ساعة إضافية في ردهة رقم ٨ الجراحية من مستشفى بيرفوغرداسكا، كطبيب متدرب في سنته الأخيرة. الساعة هي الخامسة والنصف. الظلمة قد حلّت في شتاء موسكو قبل أكثر من ساعة.

سرتُ عبر الممر الطويل متوجهاً صوب (غالا) رئيسة الممرضات لأعطي تعليماتي الأخيرة لها قبل أن أغادر.

الردهات الواسعة جميعها من المبنى العريق ذي المائتي عام، تقع على الجانب الأيمن المطل بنوافذه العريضة على حدائق المستشفى الغنّاء، أما غرف الجانب الأيسر من الممر، الصغيرة والمعدومة النوافذ فقد حُولت إلى مكاتب إدارية للأطباء والممرضات ومخازن للتجهيزات الطبية.

هنالك عدد جد محدود منها، هُيئ لمرضى الحالات الحرجة.

كان ذهني منشغلاً وأنا أسير، بحالة مريض في ردهة ٨، عليّ أن أقدم تفاصيل مرضه وحالته الراهنة وخطة علاجه لأستاذ الجراحة ورئيس قسمها، والذي يحترمه ويرهبه الجميع في آن واحد، حين تناهى إلى سمعي أنينٌ من أحد الغرف الصغيرة على الجانب الأيسر، تلاه نداء:

- دكتور! دكتور! تعال! رحمةً لله! تعال!

توجهت صوب الغرفة المغبشة الضياء، الفارغة إلا من سرير واحد كانت ترقد عليه امرأة في منتصف الخمسينات، تعلو وجهها الضامر معالم (الصفراء)..

اقتربت من السرير، مطلاً على الجسد الممدد دون حراك وفوقه أغطية صوفية عاتمة حتى العنق؛ الرأس بشعره الأشيب ووجهه المصفر وبعينيه الزائغتين يهتز يميناً وشمالاً ويطلق أنّات توجّع عالية، والذراعان كلاهما تشيران عليّ بالتقرب.

قرّبتُ وجهي منها، فهمست:

– من أجل الله اجلس إلى جانبي! وأشارت إلى حافة السرير.

جلستُ..: نعم سيدتي هل من شيء أقدمه؟

– جسَّ نبضي رجاءً!، يكاد قلبي ينخلع من تسارعه.

أضع أصابعي على قاعدة المعصم. النبض اعتيادي التردد.. أحس كفها الباردة الأخرى توضع فوق كفي..

.. تأخذ بكفيها يدي وتضمها من وراء الأغطية إلى صدرها. تغلق عينيها وتطلق آهة ارتياح حَرّى.

يتوقف الأنين وترن الغرفة المغبشة بالصمت. أُحني رأسي دون أن أتململ، وكأننا نخشى كلانا أن نخرق حرمة التعبد.

يطول الموقف الغريب في أعين الممرضات اللواتي يعبرن الرواق.

حسبت أنها راحت في إغفاءة عميقة.. حاولت أن أنزلق بيدي من كفيها دون أن أوقظها..اهتز الرأس وأنَّ من الألم من جديد.

- ساقاي تؤلماني بشدة!، لأجل الله افحصهما!

وضعت كفي على الأغطية لأفحص الساقين فغارت في خواء. لا وجود لساقيها.

أدركت أنهما قد بُترتا حديثاً. التفتُ إلى الوجه المصفر زائغ النظرات، وجهدّتُ أن أجعل صوتي المرتجف واثقاً ومطمئناً:

- سيدتي سأوصي الممرضة حالاً بحقن مورفين تزيل ذلك الألم.

- إبقَ بجانبي! وجودك أنفع من حقن المورفين التي تعطى لي كل ست ساعات..

إبقَ! لأجل الله إبقَ!.. بعد دقائق سيقدم ولدي(فالوديا) فتتعرف عليه. إنه شاب مرح نبيه في مثل سنك تقريباً، وبشعر أسود كث يشبه شعرك. ابقَ!

إبقَ!، لأجل الله دقائق أخرى.. إبقَ!

غادرتُ الغرفة، التي لم تكن ضمن رعايتي، وتوجهت إلى منضدة غالا رئيسة ممرضات الجناح كله.

- انتهت نوبتي يا غالا العزيزة، لقد وضعت كافة ملاحظاتي عن مرضاي في ردهة ٨ على طبلاتهم، لا شيء غير اعتيادي هناك.

المريضة في ردهة ١٩ الجانبية، أزرقيها حقنة مورفين إضافية الآن واتصّلي باستعلامات الدخول ليسمحوا لولدها (فالودي) بزيارتها، إستثناءً من المواعيد!

– دكتور، ليس للمريضة أي ولد أو أحد يزورها، ولدها الوحيد اختفى في معارك برلين قبل قرابة عشرين عام. إنها حالة سرطان منتشر في نهايته.

***

خرجتُ مكتئباً من مبنى المستشفى، واستقليتُ أحد الباصات المتوجهة إلى ساحة مايكوفسكي. هناك عند قاعدة تمثاله تنتظرني(ماريانا) فمعي تذكرتان لمسرحية (الزيارة) لـ(ديرنمات) والتي بدأ عرضها في (المسرح الحديث) قبل أسبوع فقط، كان كلا الأمرين صعب جداً؛ الحصول على تذاكر العرض وموعد من ماريانا، بعد محاولات لجوجة معها استمرت وبإلحاح لأكثر من عام.

أخرجت التذكرتين من جيبي وتمعّنت بعنوان المسرحية وموضع المقاعد في الصفوف الأمامية، وحاولت تخيّل تفاصيل اللقاء الذي طال أمده، ثم ما بعد الخروج المنتشي من المسرح إلى برد شتاء موسكو، الذي يمنحني فرصة لضم ماريانا إلى جانبي لتدفئتها، وراجعتُ خطة استدراجها إلى غرفتي المعدّة لاستقبالها بالورود والشمبانيا.

لم تفلح كل محاولات الخيالات الجميلة في إزالة كآبة وضياع وحيرة مبهمة، بدأت تتوضح أسبابها ومعالمها، في هيئة تساؤلات برزت أكثر وضوحاً من خيالات ساحة مايكوفسكي وديرنمات وماريانا.

"إبقَ بجانبي! إبقَ لأجل الله إبقَ!. دقائق أخرى وسيأتي ولدي فالوديا لزيارتي فأعرفك عليه. إبقَ.!.. لأجل الله إبقَ!".

ظلتْ العبارات المتكررة ترنّ في دماغي ويتردد صداها فلا أسمع ما يدور حولي من لغط الراكبين المرصوصين كالسردين في الباص، فقد انتهت أوقات أعمالهم.

" ما هذا الإصرار؟ إبقَ!.. إبقَ! .. دقائق إبقَ! وهي تدرك أن لا معونة طبية إضافية ذات قيمة يمكنني تقديمها ".

أوشك الباص أن يصل إلى ساحة مايكوفسكي... ساحة الموعد... ساحة الأحلام.

..أحسستُ بطعنة حارقة تشق أعماقي.

أيها المغفل الجاهل الأناني!!، يا من كان عليك أن تعرف قبل كل شيء ساعة البعث في الولادة، ولحظة الهاوية في الموت.

أصرخُ من مكاني:

- رحمة لوالديك أيها السائق توقف!... توقف الآن أرجوك!.

أشقّ طريقي بصعوبة عبر أكداس الراكبين لأصل قرب نافذة سائق الباص:

- أرجوك توقف... لأجل الله توقف!!.

لا يعيرني اهتماماً بل أسمعه يدمدم شاتماً "يوب تفايو مات!!" !

.. زحمة سير في الشارع المكتظ بالحافلات.

أقف على سلم باب الباص لأسبق الجميع بالنزول في المحطة القادمة.

أدفع الباب مسرعاً في فتحها لأقفز على الرصيف.

.. أعبر الشارع إلى الجهة المقابلة غيرمبالٍ بالسيارات العابرة..

.. أقف عند محطة الباص المتجه إلى بيرفو غرادسكا، إذ يستحيل عليّ أن أحصل على سيارة أجرة فارغة.

أستقل الباص وأقف قرب كابينة سائقه وكأني بذلك أسرّع حركته..زحمة السير على أشدها هذه الساعة..

.. يتوقف مرات عديدة!

.. مضى على خروجي من المستشفى قرابة ساعة ونصف. في مثل هذا السير البطيء للباص لن يصل قبل أربعين دقيقة في أحسن الأحوال.. لو أني نزلت في المحطة القادمة وركضت بعزم فسأصل المستشفى في عشرين دقيقة.

أنزل..

أركض..

.. أصطدم بالسابلة الكثر على الرصيف دون اعتذار.. كثرتهم تعيقني عن الركض بالعزم الذي أريده وأستطيعه.

.. أسلك أزقة جانبية لعلها تمنحني مجالاً أفضل.. أتوه في بعضها، فأعود إلى رصيف الشارع الرئيسي المزدحم.

.. تلوح أخيراً أضواء المستشفى فأطلق زفرة ارتياح..

أركضُ بكل ما لديّ من طاقة متبقية.

..كأن مسافة الأضواء عني هي هي لا تتغير..

.. أنظر إلى ساعتي. ها قد مرّت ساعتان على مغادرتي..

أصل أخيراً.

.. أعبر البوابة المشرعة راكضاً.. ينظر اليّ الحارس باستغراب.. لا ألتفت إلى تحية موظفة الاستعلامات.

.. تنظر إليّ بتعجب وأنا أجتازها إلى السلالم راكضاً.

.. أمشي ممر الردهات الطويل بخطى واسعة أحاول جعلها متزنة.

قبل أن تلحق(غالا) في سؤالي عن سبب عودتي، كنت اجتزتها لأصل إلى الغرفة الجانبية (١٩).

ظلام يعمّ الغرفة.. أتقدم بخطو حذر.. أسمع كالمطارق دقات قلبي المتسارع..

أتمكن أخيراً من تمييز التفاصيل في الظلمة.

***

مسعـــودة

السباب يهدر ويتناثر في باحة الدار وخلف الأعمدة الحديدية الإسطوانية الحمراء، وفي الممرات، وعبر الأبواب المشرعة.. يعلو ويتصاعد ويدور صداه في دوّار المنور الوسيع، ذي النوافذ المحزمة بقضبان حديدية والمطل على باحة

الدار.. يدور مرة وأخرى وثالثة ثم يعود ليتناثر كهشيم زجاج مبعثر، تتزايد حدته وصداه مع تزايد حدة الضربات على الشعر الأسود المعثكل المتلامع.

.. تهرب مسعودة.. تدور حول باحة الدار.. تحتمي وراء الأعمدة، تهرب إلى عمودآخر، تتعثر وتنكفئ على وجهها ويرن صدى ارتطام وجهها بالأرض، تزحف إلى زاوية قريبة.. تتكور كالقنفذ وتخفي رأسها بين ركبتيها وذراعيها المعقودتين.

عندما تعجز السيدة عن اكتشاف مساحة كافية من الرأس لقبقابها تبحث كفّها عن أكبر عثكولة من الشعر الكث الملطخ ببقع الدم، وتملأ قبضتها منه.

يخرج رأس مسعودة من بين فخذيها ويظهر وجهها بنفسجياً قرمزياً عاتماً محتقناً، بعينين جاحظتين اتسعتا واستدارتا من الفزع، وتلامع الوجه المتورم بالمخاط والدمع والعرق.

يجد القبقاب الخشبي الثقيل مجاله إلى ما ينكشف من رأسها وينهال كالمطارق.

تتكور أكثر. يستمر الضرب فيصيب خلفية الرقبة المنحنية ومساحات من الذراعين وأعلى الظهر. يهتزّ الجسد الأسود المربوع، يتلوى، يدور على نفسه، يحاول الزحف فتنكشف مواقع أكثر منه.. تتزايد صرخات التوجع وولولة الاسترحام والاستنجاد:

دخيلك عمة! دخيل الويلادْ.!.. دخيل السيد!..دخيلج حجية!!.. أبوس رِجْلك خاتون.!!.. خاطر الإمام.. لخاطر الحسن والحسين!. أروحْلجْ فدوة!!..التوبة والله التوبة. عم...

يعود التوسل بنفس الأسماء وغيرها وبكل ألقاب التبجيل وبنبرات مختلفة..

.. يختلط ويضيع أحياناً بين الشتائم المنهالة مع الضرب.

لا فائدة لكل تلك الإستجارات بسلسلة الأئمة والمقربين في تهدئة السيدة العمة، الحجية، الخاتون، البَاجي.. وجه السيدة الأبيض يزداد توردا واحمراراً وتورماً.. تشتد تكشيرات الغضب وكزكزة الأسنان.. الوجه المحتقن الغاضب يدور مع اليد المرفوعة بآلة التعذيب الخشبية المتهاوية بلا انقطاع.. يستمر هدير السباب عبر الصوت الذي بدأ يبح مكرراً تصميمه على تكسير رأس مسعودة، وتقطيعها وصلة وصلة، ورميها للكلاب السود.

تبدأ السيدة باللهاث. تتباعد كلمات الشتائم وتطول.. تخف الضربات. تتباطأ نوبات الضرب. تضعف، ثم تتوقف منتهية بركلة قوية على الخاصرة.
– ألف مرة خبرتك يا بنت الكلب أن تُنظفي غرفة الضيوف قبل يوم الأربعاء.

تريدين تخزيني كَدام الضيوف؟

تدمدم السيدة بكلمات متقطعة لاهثة وهي تبتعد عن الكتلة الشوهاء الباكية المقرفصة في الزاوية، لتلقي بنفسها على تختٍ خشبي وثير في باحة الدار.

-كلبة، خنزيرة، قحبة!، ما يفيد وياك الضرب يراد لك حرق.. والله لصب عليج فد يوم تنكة نفط واحركَج واخلصْ.

كنا نقف متصلبين كتماثيل خشبية، مبهوري الأنفاس قرب الباب المفضي إلى الحديقة الوسيعة، فزعاً من أن تنتقل زوبعة الغضب فتصيبنا من بعد مسعودة.

شيء مخيف! التقطيع وصلة وصلة! الأفظع منه رمينا مقطّعين إلى الكلاب..

الكلاب السود!.. والحرق!.. تكاد تبتل سرا ويلنا من ذكره!. نحترق كوقدة نار مستعرة ونتقافز ونركض بشكل عشوائي ونصطدم بهذا العمود وذاك الجدار وذلك الباب، تماماً كما حصل حينما صب محسن النفط على كلب مجذوم في بستان جارنا وأشعل فيه النار.. يا للهلع الذي أصابنا في حينه ونحن نتراكض مبتعدين عن الكتلة المزمجرة الملتهبة وهي تنطلق مسعورة، قافزة، نابحة، مولولة، مكزكزة، تصطدم بهذه النخلة والشجرة وبالسياج الطيني.. رائحة الشواء الزنخة كانت قد ملئت أطراف البستان.. ملئت خياشيمنا لأيام في كل وجبة طعام تلت وخصوصاً حينما يكون ضمنه لحوماً مشوية.

كنا نقف على أهبة الاستعداد للهرب محملقين بغباء بالسيدة اللاهثة من التعب، المزمجرة بكلمات لا نفقه بالتحديد معانيها، إلا أنها تزيد من فزعنا وغباءنا وحملقتنا:

– بنت الزنيمْ، خنزيرة سودهْ، أُم الشحولة، غراب البينْ، الغبرة الدبر÷..

كان كل واحد منا يستعيد حتى أصغر الأخطاء التي ارتكبها ذلك اليوم، بل وحتى السابقات منها، والتي أفلتنا من عقابها لأيام مضت، حتى التحرش الحذر بابنة بائعة الحليب في الكوخ القريب.

يتزايد اقترابنا من الباب المفضي إلى الحديقة.. يعرف كل منا الأجزاء المتثلمة من سياجها الطيني.. لقد مارسنا الهروب عبرها في أيام سابقة، وكنا حين نصل إلى التربة الآمنة بتخطينا فسحة السياج المثلومة دون أن ندرك ونحن في منجى من الخطر، كيف تمكنا من هذا الاجتياز العظيم ونحن لا نستطيع في مسابقاتنا في نفس هذه الأماكن أن نقفز نصف مثل هذا العلو. صحيح أن واحداً منا قد لا يسعفه الحظ في التشعبط والقفز إلى البستان المجاور، فيقع تحت رحمة عصا السيد أو نعل السيدة الجلدي؛ كلاهما شديد الإيلام ويبقى أثره لأيام على أجسادنا.

كنا نقرفص مرتجفين في الجانب الآخر من الطوف الطيني، وأكبادنا تنخلع لصيحات الألم ونداءات الاسترحام وطلب المغفرة للضحية من مجموعتنا التي خانتها ساقيها في القفز في اللحظة المناسبة.

– التوبة والله بعد ما سويها!... يا بوي التوبة!... يا يمه دخيلك!

نظل ننتظر بصمت انتهاء العقاب، وتملص الضحية من سجانيها بعد فترة، لتقفز وتلحق بنا في البستان المجاور.

- ما يخالف، لا تبك، كافي وامسح مخطانك!

نربتُ على كتف خائب الحظ منا، وقد يمنحه أحدنا نصف برتقالة من غنائمنا في بستان الجار. نتراكض بعدها بقليل وكأن لم يكن هنالك رعب قد لاحقنا.

نصل إلى حافة الجدول القريب.

-دعني أريكم شيئاً. يا الله تعالوا ورائي!

أقول ذلك بشكل فيه الكثير من الجد والغموض العجائبي، وأتوجه بهم مشيراً بذراعي المدودة بفخر إلى مساحة رملية صغيرة قرب الجدول مسيّجة بكسرٍ صغيرة من السعف المتيبس.

-ها هي مزرعة خرفاني!، لقد زرعتُ عشرة عثاكيل من الصوف قصصتها من خروف البستان. أسقيها بانتظام، مرة كل يومين.. أيام قليلة وتنبع منها قرون خرافي الجديدة.

الكل ينظر بانبهار إلى الكتل الصوفية النابعة من التربة الندية. ثم يعيدون النظر إليّ بانتظار شيء ما.

- لقد سمعت السيد مراراً وهو يعلو بصوته "إزرعْ صوف يطلع غنم!" كان يقولهالأصحابه الزائرين: ".. نعم إزرع صوف يطلع غنم!".

لا زلنا نراقب قرب نهاية المشهد بين السيدة ومسعودة، والذي كان يتكرر مع بعض التحوير البسيط في الشتائم المستعملة أو أدوات العقاب. لم يكن السبب يغيّر كثيراً في عنف الهجوم أو مدته. أحياناً لا نتوصل إلى السبب المعلن، حتى حين نتحاور في تفاصيل الحدث عبر سياج البستان.

السيدة تتكئ بظهرها على مسند التخت وتمدّ إحدى ساقيها على طولها على حين انحدرت الأخرى باسترخاء من حافة التخت ولامست الأرض.. لا زالت تلهث ولكن بدرجة أقل، كما واختفى تورم واحتقان وجهها.

من حين للآخر كانت تلقي نظرة على الجسد المكور والرأس الذي لا يزال نصف غائر بين الفخذين، على حين تجعدت عثاكيل الشعر الخشن والتصقت ببعضها بالدماء الجافة، كجزة خروف بعد الذبح.

كلما ارتفع أنين مسعودة الخافت وبكاءها إلى ولولة ونحيب، زمجرت السيدة وصرخت:

- انخنقي واسكتي وإلا أقوم وأشفي غليلي بك من جديد!.

تصمت لفترة قليلة ثم يعود الأنين والبكاء:

- ارموا لهذه المنحوسة أسلابها! وخليها تغور عن وجهي.

تشير إلينا بنصف التفاتة إلى أشياء متناثرة نعرفها في وسط الباحة وأطرافها..

فردة نعل مطاطي هنا، وأخرى هناك..عصابة رأس مجعدة زرقاء بورود ناعمة حمراء.. إسورتان زجاجيتان، أحداهما قد تهشم تماماً ويبدو الآخر

سلياً، كنا نعرف أن من ضمن هذه الأسلاب، مكنسة الخوص التي تكاد لا تفارق يد مسعودة.

نقف متنصتين بوجوم حذر قرب باب المطبخ للدندنة الخفيضة الناحبة التي تذكرنا بتنويهات الأطفال الرضع الحزينة في مهودهم.

***

من أين، متى، وكيف نبعث هذه (المسعودة) الشابة الربعة السوداء في بيت أقاربنا في الريف الجنوبي؟!

هذه الأسرار كانت عصيّة حتى على أبناء السيد الصغار. لا أحد يعرف، ولم يكلّف أحدنا نفسه مشقة السؤال وربما مخاطره. كل ما نعرفه، أننا وجدناها مهروّلة بشكل شبه دائم في باحة الدار، يلاحقها القباب الخشبي الثقيل ذاته.

لا دار دون مسعودة! مثلما لا دار دون تلك العمدان الأسطوانية الطويلة التي ترفع سقفها المنفتح على زرقة السماء المضببة بوهج الظهيرة.. هناك نرى مسعودة تماماً كما نرى حين نرفع أعيننا تجاه السطح تلك الحزم الضوئية التي تعوم فيها ذرات الغبار المتلامع.

من الصعب علينا استحضارها في ذاكرتنا الصغيرة، أصغر مما هي عليه عمراً، أو مرتديةً غير ذلك الثوب القصير، بوروده البيضاء المتسخة، المنثورة على خلفية حائلة الزرقة، ونعلان مطاطيان يشدان على القدمين الضخمين تظهران من بين أصابعهما وعقبيهما آثار بائدة من الحناء.

لا نعلم متى كانت تصحو، غير أننا عند الفجر حين ننسلُّ من أسرتنا فوق السطح نازلين بحذر اللصوص إلى باحة الدار نجدها تدندن بألحان أغاني لم نسمع بها من قبل وهي منهمكة في رش البيت وكنسه، لا تترك ذرة غبار أو قشة عالقة في أية بقعة من فسحة البيت أو المطبخ قبل موعد نزول السيدة التي تجري تفتيشها الدقيق على كل زاوية.

عند سماعها وقع أقدام السيدة على درجات السلم تتوقف دندنة الأغاني المكتومة ويسود صمت متوتر.

..ثم يأتي إعداد الخبز الطازج الحار؛ أي مهمة التنور.

كم كان يلذ لنا أن نساعدها في تقديم هذه الحزمة أو تلك من العيدان أوالسعف اليابس عند بدء شَجرِ التنور، بل وقد نحاول أن نعدّل أطراف العجينة المفروشة كقرص مدور فوق مخدة الخبز المغطاة بقطعة قماش مشدودة.

.. نخفق في ذلك أغلب الأحيان.

كم كنا نصخب ضاحكين حين كانت تقفز صارخة بهلع حينما يمسك لسان اللهب المتطاير بإحدى عثاكيل شعرها فتغمس على عجل يدها الملطخة بالعجين بإناء الماء المجاور وتُخمد عثكولة الشعر المحترقة.

كنا أول من نذوق الخبز الحار الخارج من التنور وغالباً ما تصنع لنا منه حنونات صغيرة مدورة.. ثم تأتي محنتنا اليومية.. كانت تسحبنا الواحد تلو الآخر فتدعك وجوهنا وأيدينا وأقدامنا بقوة، غير عابئة باحتجاجنا وصراخنا وخصوصاً حينما نحاول جاهدين أن نفلت من غسل الشعر ودعكه تحت صنبور الماء نخال معه أنها ستقتلع فروة رأسنا.. ندرك سبب ذلك فيما بعد حين تستعرض السيدة نظافتنا.

.. تنظر السيدة بحزم وإمعان إلى الأيادي والأقدام والرقبة والشعر والوجه، حتى ما خلف آذاننا.

بعد صينية إفطار السيد والسيدة التي تحضّر تحت إشرافها في المطبخ، تحمل إلينا صينية إفطارنا إلى غرفة جانبية وهي تختلف بأحجام صحونها ومحتوياتها عن تلك المقدمة إلى رب وربة الدار.

مسعودة تقوم بفض النزاعات التي كانت تحصل أثناءها على حصصنا من صحن مربى السفرجل أو القيمر؛ كانت تضع مربى السفرجل الذي تبرع في إعداده في مرطبانات تصفّها فوق رفوف عالية في المطبخ، يكاد أن يستحيل علينا الوصول إليها عند اختفاء الرقيب.

***

ترسلها السيدة إلى السوق بقائمة طويلة من الطلبات مع توصيات كثيرة تعاد على أسماعها يومياً قبل الخروج:

-إياكِ وأن يغشك القصاب في الوزن! اللحم شِرحة بدون جلافيط وعروق!

عصفورةُ زند.. البامية تَرفَةْ وصغيرة.. الطماطة تختاريها وحدة وحدة.

تنتهي قائمة النصائح بالتحذير الرهيب:

- الفلس اطلّعه من غلاصيمك لو تجاسرتِ واخفيتيه! أطلعه من عيونك! أكسّرْ عظامك لو تأخرتِ ورحت سائبة كالكلبة في الدروب! ومجموعة أخرى من التحذيرات المُخيفة.

تعود بزنبيل الخضار واللحم وما يلفه العطار في أكياس ورقية.

تضع المشتريات فوق منصة المطبخ الخشبية بعد أن ترتبها حسب إقيامها وتقف منتظرة تفرغ السيدة وقدومها للتدقيق والحساب. وتأتي ساعة الحساب وهي عسيرة! تزن السيدة اللحم بكفها، تقلّبه بأصابع اليد الأخرى، تقربه من عينيها متفحصة وتشم رائحته. تفحص كل قطعة من الخضار، تعقبها لحظة تأمل وهزّة عدم اقتناع من شكل أو وزن الأصناف.. تفتح أكياس العطارة وتشم روائحها.

خلال عملية التمحيص والحساب، لا ينقطع صوت السيدة المتشنج من الدمدمة المصحوبة في الغالب بالشتائم التقليدية. الزجر الفجائي قد ينطلق

في أية لحظة تقفز منه مسعودة إلى الوراء واضعة كفها على جانب وجهها اتقاءً لصفعة مرتقبة.

ينتهي الحساب العسير في الغالب بالسؤال اليومي المعتاد:

- كم نسيتِ في جيبك من بقية الحساب!؟

- والله، والنبي! لم آخذ فلساً واحداً... والله باجي!

حين ترى أن هذا الحلفان الأولي لم تظهر منه معالم القناعة على وجه السيدة، تكمّله بحلفان أكبر: وحق أمير المؤمنين!، والحسن والحسين!، ما أخذت شي!

وحين لا تزول معالم الشك من الوجه المتجهم بمواجهتها، تتصلب، ترتجف ثم تطلق حلفانها الرهيب:

- والعباس أبو راس الحار ما أخذت شي!!

حتى هذا الحلفان الأكبر قد لا يؤدي إلى القناعة المطمئنة، وينتهي المشهد اليومي في الغالب، بأن تمتد يد السيدة إلى جيوب مسعودة في بحث دقيق لا يعطي نتائج مقنعة رغم خروج اليد فارغة، وتأتي صفعة غيض الفشل من عدم اكتشاف الجرم على الخد الأسود الذي سرعان ما تبلله دموع صامتة، وهي تتحرك ببطء لتقوم بتوزيع المشتريات في أدراج المطبخ أو فوق رفوفه أو في قدورٍ ذات أغطية ثقيلة.

جمع البيض من بين أكوام القش في سقيفة الدجاج من مهمات الصباح أيضاً، يتبعه تقديم علف الخروف الذي أهداه فلاحون من قرية السيد إلى

رب الدار، وملء صحن الماء أمامه. لو شحّ ماء الصحن تعالى صوت السيدة:

- يا رب يقصف عمرك! وتشوفين عطش جهنم، يا مجرمة، يا قاسية القلب... تريدين تموتين الحيوان المسكين من العطش؟!

لو نفقت إحدى الدجاجات فهي المسؤولة الأولى، حتى لو أكّدت لها بالأيمان الغليظة أن دجاجات البستان المجاور قد نفق نصفها من وباء (أبو الضريّق).

.. غسيل الملابس، نشرها على الحبال والتي يسهل علينا لعبة الاستغماية خلف ستائرها المعلّقة.. الأفرشة المنشورة، كيّها.. هندام صغار السيدة وصبغ أحذيتهم قبل خروجهم.

.. هنالك مهمات أخرى لا نراها كاملة، كدخولها مع السيدة إلى الحمام، أو إعداد العصيدة السكرية الكثيفة الحارة التي يُحرّم علينا تذوقها، تقوم بفرشها على قطع طويلة من القماش ثم تضعها على صينية تنقلها إلى غرفة نوم السيدة وتحكم غلق رتاجها وراءها.

قد تسبق طقوس استحمام السيدة وما بعده همسات في أذن مسعودة قبل أن ترسلها إلى الجارة أم لطيف..

يدور الهمس مع التأكد من عدم وجودنا على مقربة للتنصت..

تعود بأكياس صغيرة من مساحيق بيضاء.

أخطر المهمات التي غالباً ما تؤدي إلى انفجار غضب السيدة وتكرار مشهد معركة القبقاب، انشغال مسعودة بعدها، في وضع عطباتها الصوفية فوق جروح فروة الرأس في عتمة المطبخ: هي تنظيف وإعداد غرفة الضيوف يوم الأربعاء.

***

الأربعاء هو يوم (القَبولْ)!

حلّ المساء وبدء (قبول) السيدة.. نرقب عن كثب ونتهامس ضاحكين معلقين على الضيوف...

تتكرر الوجوه ذاتها كل أربعاء وتتبدل الأزياء والعطور التي أخذنا نميز صاحباتها من خلاله، كما تتبدل معها رنّات كعوب الأحذية وخشخشات الحلي الذهبية.

هذا يومنا في الاستمتاع بسرقات خاطفة من صحون مربى السفرجل وحفنات من المُكسرات والحلوى المرصوفة فوق منصة المطبخ، قبل أن تقوم بنقلها مسعودة إلى الضيوف.

ليالي الأربعاء هي فرصتنا في ساحات المعارك التي تدورفي نسمات المساء الندية فوق أسرة السطح والتضارب بالوسائد، والاختباء عن أعين الأعداء المهاجمين في غرفة الأفرشة بين الحشيات والألحفة.

حين يصيبنا الانهاك ننزل للتنصت الحذر قرب باب غرفة الضيوف:

- وطلقها بالثلاث... أي والله بالثلاث، ورماها إلى أهلها رمية الجلاب.. المسكينة المكَرودة إجاها الخط المصخم للبيت بعد ثلث تيام.

- والفروخ الصغار المساكين وين بقوا؟

- ضَلوّ وياه!، ويهَ أمه... عِمتْ عينها شلون بيبيه عجوز الشوم، هسه راح ترأويهم الضيم.

استمرت تفاصيل طلاق فتحية والنقاش الحار حول مصيرها لمدة غير قصيرة علت فيها أصوات، وشتمت أصوات أخرى، وتصاعدت أدعية إلى الله والأئمة بقصف رقبة اللي كان السبب. ثم انتقل الحديث بالهمس أولاً عن علاقة بنت أم أحمد المريبة بابن الحاكم.

- يكَولون بَيوُمّهْ! صَخّمها!

تلتها تفاصيل بصوت هامس مع تتمات لها من أخريات، عن تسلل(الداية) إلى دارهم في الليل لمرات عديدة، ثم اختفاء بنت أم أحمد إلى جهة مجهوله..

- خاف سوولها شي، المسكينة؟!

- لا هذولي مو مال كَتل وذبح.

- ياهو اللي يسأل، يكَولون راحت عند خالتها بالبصرة.

ثم يلي ذلك كما في معظم الجلسات حديث الذهب والصياغة وسعر المثقال، وحجول نعيمة الجديدة، وأقراط أم هاشم الثقيلة.

***

في صيف آخر وفي زيارة جديدة للبقاء في دار السيدة فترة من العطلة المدرسية، لاحظتُ وصحبي من الصغار في البيت تغيراً ملحوظاً ومُسِرّاً على سلوك مسعودة وهندامها، بل ومحاولتها تنفيذ أدق ما تطلبه السيدة بصبر وبابتسامة رجاء واستعطاف:

- امرك باجي! من عيني هاي وعيني هاي! شما تؤمرين سيدتي! أروحلك فدوة سامحيني على غلطتي الصغيرة! ..أنا خدامتك وعبدتك وما أريد إلا رضاك!

إلى غير ذلك من الاستعطافات التي قللت بالفعل من هياج السيدة وتباعدت معها مهرجانات القبقاب الدامية..

.. زاد سماعنا لصوتها وهي تدندن في خلواتها في المطبخ أو وراء التنور خصوصاً عند غياب السيدة عن البيت، بأغاني جديدة كنا قد ألفنا سماعها من الراديو في برامج الصباح. كانت تختلف تماماً عن تلك الترنيمات الحزينة التي كانت ترددها في الأيام الفائتة والتي كنا لا نفقه معظم مفرداتها..

..أصبحت أقاصيصها لنا حين مرافقتنا إلى أسرتنا في الليل، تنتهي في الغالب بنهايات سعيدة كالعثور على الكنز المُخبأ أو عودة الحق إلى أصحابه أو زواج الابنة التي كانت تحبسها زوجة الأب في التنور حين يأتي خطّابها إلى الدار بعد أن يصيح الديك "كي كي كوكو، كي كي كوكو... المو حلوة بره والحلوة بالتنور.. الحلوة بالتنور! "

زارت أم سالم السيدة تصاحبها امرأتان من معارفها. ركضت مسعودة باضطراب كبير إلى المطبخ. دار حديث علا فيه صوت السيدة وتوزم وجهها.. لانَ الصوت قليلاً واعتدل بعد رجاءات أم سالم ومن معها. علا من جديد مع تهديد شديد:

– خليّ تصطبر! والله لأكسر رقبتها.. ال... ال.

عادت الرجاءات ونهضتْ إحداهن وقبّلت رأس السيدة:

– ينوبك ثواب. هي خدامتك عمر طويل وما يروح بيها المعروف.

تهدأ السيدة.. وبعد نوبات أخرى من الإستعطافات تبتسم على مضض:

– هذي بس لخاطر ها الزيارة، ولخاطر أم سالم.. ثم أضافت بصوت أكثر جدية: أنطونا أنا والسيد مهلة نفكر... نخبّركم بعدها شوكت يمكن أن يجوون، وإذا جانت اكو قسمة! انشاء الله يصير خير.

كنا نخمن ونتهامس بيننا بأن هنالك شيء ما جديد يدور في الخفاء حول مسعودة وأخذنا نسترق السمع إلى أحاديث الليل الخافتة التي تدور على السرير العريض ذو الكلّة الكبيرة المُسدلة قبل أن يتحول الحديث الهامس إلى هسهسات وصرير للسرير المهتز وأنات وأصوات غريبة غامضة قد يعقبها بكاء قصير تتبعه كركرة ضحكات مكتومة.

في تلك الأيام، المميزة بتبدل طبيعة انفجارات غضب السيدة، الذي أخذ مجرىً مغايراً بعض الشيء لسابقاته.

نفس إشارة البدء بالصرخة الصاعقة التي تشل لا مسعودة وحدها بل حتى نحن الهاربين كالعادة إلى البوابة المفضية إلى البستان؛ نفس الجري والمطاردة والزوغان من القبقاب الخشبي الثقيل.

نفس الهيئة القنفذية المتكورة وراء أحد الأعمدة. نفس تعابير الاسترحام والترجّي ثم أنات الألم والتوجع.. فقط هنالك تبدل طرأ على شدة الضرب الذي خفّ وتباطأ، مع نهاية أسرع للمهرجان الصاخب وأقل دموية، فلاعَطبات كبيرة تزين فروة الرأس بعدها..

.. أضيفت بعض العبارات الجديدة ما بين الشتائم.

– أم الرِياجِيلْ! أم المواعيد بالدروب!..عرس؟!..! عرس!؟ ها عرس!؟ كله من ورايه يا قحبة.

أخيراً عرفنا الخبر المفهوم عند الصباح أن مسعودة راح تعرّس، وأن هنالك من هو قادم هذا المساء حول قضية العرس..

..هزجنا في البستان ودرنا حولها وسحبناها من أطراف ثوبها وهي تستعد للوقوف وراء التنور:

" مسعودة راح تعرّس!! هيه هيه! مسعودة! مسعودة!... مسعودة راح تعرس هيه هيه!..مسعودة!

كانت تكركر جذلى وهي تبتعد بمرح عن قفزاتنا الصاخبة الرعناء ووجهها يتحول وراء لفح لهب التنور إلى احتقان ضاحك بنفسجي قرمزي داكن.

اليوم تدور مسعودة لأول مرة في زوايا البيت وبين المطبخ وغرفة الضيوف بمهماتها ببدلة نظيفة وبحذاء جلدي وشعرها قد خفّت عثكلته ورُتِبْ، وبرزت من وراء غابته البنفسجية الغامقة السوداء المتلامعة جديلتان صغيرتان، عُقدت في شرائط قصيرة حمراء.

أُعفيتْ من مهماتها الثقيلة في المساء وكانت شتائم الصباح محدودة جداً اقتصرت على فترة تقديم الإفطار، التي أنهاها السيد بإشارة تنبيه بعينيه، فما كان من السيدة إلا أن ردت التأنيب بقفشة عاجلة حين علقت على تأكيده على ذهابه إلى حمام السوق أمس استعداداً لاستقبال الضيوف القادمين:

- كَلتْ لجْ رِحتْ لحمام السوكَ البارحة!

نظرت السيدة إليه بسخرية وأشارت إلى كعبي قدميه المسودّتين:

- يبيّنْ نسيت البارحة تأخذ جعوب رجليكْ وياك للحمام.

أثار ضحكنا العفوي الصاخب وابتسامة مسعودة الخفية المكتومة ثم هروبها إلى المطبخ غضب السيد الصامت الذي غادر صينية الإفطار والدار على عجل.

بعد المغرب بقليل أحسسنا من التحركات السريعة في الدار أن الموعد قد اقترب. اشتد تناوب مسعودة بين المطبخ وغرفة الضيوف وباحة البيت. كانت تعابير وجهها مشوشة قلقة، تتجمد للحظة وتضيع نظراتها الساهمة

في جهة بعيدة خفية، ثم يفتر ثغرها عن أسنان مرصوصة يتلامع بياضها في عتمة الوجه المبتسم.

.. تصطدم بنا في حركتها الساهية.. نصطدم بها عن عمد متضاحكين.

نسيت مسعودة، أم تعمدت النسيان حين قدمت لنا برتقالة ثانية بدلاً من الواحدة المقررة لكل منا يومياً.. نسيت كذلك مرطبان مربى السفرجل على منضدة المطبخ.

..أتينا على نصف ما فيه.

***

أعقب طرق الباب الخارجي عند المغرب، هروب مسعودة المتعثر إلى المطبخ.

كان الرجال أول الداخلين وتوجه السيد بهم إلى غرفة الضيوف. كان معظم الرجال القادمين بعباءات جد أنيقة وكوفيات مرقشة وعقالات تختلف بغلظها.

تلا ذلك بدقائق حضور النساء وتقدمتهم السيدة إلى التخوت المرصوفة في باحة الدار.

تسمّعنا من موقعنا المتنصت في ممر البيت قرب باب غرفة الضيوف إلى كلمات الترحاب والسؤال عن الصحة والأحوال وعن سير الأعمال في بستان السيد وبساتين بعض الضيوف ومهن الآخرين، وعن مَشقّات الزمان الصعب المتقلب وغدره..

.. ساد صمت مفاجئ في الغرفة، أعقبته نحنحات وسعلات خفيفة.

- نتوكل على الله يا جماعة وخلي الشيخ أبو نزار هو اللي يتكلم بلسان الجميع ويدخل بالموضوع.

قطع الصمت صوت خشن، تبعته أصوات مرحة تؤكد الاقتراح، وكلمات على خيرة الله، وتوكلوا بالله، ودعاء للسيد رب الدار بعمران داره ودوام عزه.

في جبهة الرجال تلك، كل مقدمات الحديث والدخول بالموضوع وتعقيبات

رب الدار وردوده كانت تجري بأصوات هادئة متزنة تتخللها رنات مرحة وأدعية بالخير.

أما على جبهة السيدة فقد كان الموقف مغايراً لذلك؛ السيدة ورغم إصرار السيد وترجّيه، أبتْ إلا أن تستقبل النسوة القادمات بملابسها البيتية الاعتيادية.

ترحابها كان مصبوغاً بلهجة رسمية صارمة ومتحفظة.

..المقدمة في حديث النسوة عن الأطفال وتربيتهم وشؤون البيت الصعبة التي لا تنتهي، وعن مواسم زيارات الأئمة المعصومين وعن عودة الحاجة أم علوان من بيت الله، كانت تقابل بصمت السيدة أو بكلمات قصيرة مبتورة.

.. يقف لغط الحديث عند الضيفات وينقطع لبرهة، ليعود ويتحول إلى موضوع آخر على أمل بث الدفء في الموقف الصعب.

تنحنحت إحدى السيدات المُسنات:

- عليك يا أمير المؤمنين وصاية آل البيت وخلي الحاجة أم علوان تبتدي حديث الخير.

وتحدثت الحاجة أم علوان، وقوطعت بكلمات السيدة المتشنجة، وتدخلت الجارة أم سالم باستعطاف، وعادت أم علوان متلعثمة في عبارات صاغتها بشكل آخر. لحظات وعلا صوت السيدة بغضب؛ الجارة أم سالم تقوم وتقبل

رأسها ويعود الحديث ويصخب بمداخلات بقية النسوة وبرجاءاتهن.

ثم تزايد الضجيج وامتزجت الأصوات والسعلات وأفأفات السيدة وأدعية الخير وأسماء الأئمة.

انقطع الحديث حين وصلت نحنحة السيد من الممر واستئذانه من النسوة لكلمة على حدة مع السيدة. دار الحديث بين رب وربة الدار في ممر البيت وعلى مقربة منا همسا، وكانت فيه رجاءات منه وتطمينات، وحين كان صوت السيدة يبدأ في العلو، كانت توسلات السيد تزداد. وعادت السيدة إلى مكانها بين النسوة في باحة الدار وسمعنا أصواتاً مرحة من غرفة الضيوف أعقبتها عبارات:

- على بركة الله، على خيرة الله، الله يتمم بخير، ثم صوت أبو نزار الخشن الجهوري:

- خلي إيدك بأيدي سيدنا وخلينا نقرأ الفاتحة سيدنا!

.....

على الجبهة النسوية بدأت إحدى السيدات بالزغردة التي لم تطل بعد أن أشارت السيدة إليها بخشونة بالتوقف.

علمنا في تنصتنا الليلي من حديث تحت الكله فوق السطح، أن العريس المنتظر هو علوان.

.. نعم علوان؛ علوان الأسود نفسه، عامل مضخة السقي الضخم في البستان

المجاور والذي لم نره إلا ملطخاً بالسخام والدهون.

.. رغم ذلك المظهر الهائل المتطاول كجذوع النخيل، فقد كنا على كامل الود والتفاهم معه، فابتسامته وتلويحة يده لنا من بعيد، كانت تمهد لنا سبيل الاقتراب منه ومن(خنزيرة) الماكنة، ذلك الحوض الإسمنتي الواسع الفوار بالماء الدافق.

من أنبوب المضخة الضخم، كان يتآمر معنا على السماح بالقفز والخوض في الخنزيرة، شرط أن لا تكون ملابسنا مبلولة عند الرجوع إلى الدار تحسباً لعقاب السيدة لنا ولما يجره عليه لسانها من شتائم وتهديد.

كنا قد لمحناه مساء ذلك اليوم بين مجموعة الرجال الذين قدموا إلى السيد في غرفة الضيوف؛ كان مظهره مختلفاً تماماً؛ مارد أسمر بصاية أنيقة وعباءة جز طويلة مقصّبة وغترة حريرية بيضاء وحذاء لماع ووجه رصين جاد.

***

مرت أيام وكانت فرحتنا نحن الصغار لا حدود لها إذ دعانا أحد أقرباء السيد لعرس ولده في قرية غير بعيدة.. عرس، وحلوى وألعاب صاخبة مع أولاد القريب الصغار في غياب رقابة الأهل المنشغلين بالعرس والمدعوين. تشعبط على الأشجار المثمرة، وسباحة في جدول البستان، ومبارزات بأعواد جريد النخل، وأقاصيص عن الجن والطناطل تحت وشوشة سعف النخيل في الليل.

غادرنا إلى القرية وبقيت مسعودة في البيت كالمعتاد في مثل هذه الغيابات.

كان معظم ما حلمنا به قد تحقق في أيامنا تلك في بستان أهل العريس، وتركنا قسم من إنجاز بقايا أحلامنا لأيام تليها، حينما نصحو مبكرين والكل نيام لأوقات متأخرة بعد فوضى الأعراس الليلية. غير أن إصرار السيدة على العودة المبكرة بعد أيام قليلة من تواجدنا أضاع الكثير علينا.

***

وصلنا عائدين عند المساء وكانت مسعودة بفرحة لقاءها المعهود لنا عند عتبة الباب وسارعت لنقل الأمتعة والسلال من سيارة الأجرة إلى داخل الدار.

كان الشاي والبسكويت والخبز الحار ومربى السفرجل في انتظارنا. هرعنا إلى السطح نستقبل أنسام الليل وبدأنا قفزنا المعهود فوق الأسرة والفرش الندية الباردة التي كانت تغري بالاستلقاء فوقها وتبادل حكايا الجن والطناطل والأشباح، التي كانت تدور بين الكلل الشفافة المتماوجة مع هبات النسيم في حلكة الليل.

في صبيحة اليوم التالي، وفي وقت غير مألوف لمواعيد نوبات غضب السيدة، صحونا خائفين مذعورين على صرخات استنجاد واسترحام ومناشدة بأسماء الأولياء والأئمة والأبناء والسيد المحفوظ طويل العمر.. كانت المطاردة من أطول ما شاهدناه، والضرب هو الأعنف والأقسى.

لم يكن من الطريدة المرعوبة المنكوثة الشعر المبحلقة الأحداق الصارخة بفزع إلا أن تقفز هذه المرة إلى غرفة المؤونة في المطبخ وأن تحكّم بابها الثقيل خلفها. وكأن في حركتها الدفاعية تلك، الفرصة التي كانت السيدة بانتظارها، فما كان منها إلا أن تضع القفل الضخم المعلق في رتاجها الخارجي وتحكم إغلاقه وتطلق زعقتها الغاضبة:

- من ها الحبس يا مصخمة الوجه، لحبس الشرطة!

تم استدعاء السيد من أطراف البستان وهُدد بالصوت الغاضب المزمجر بأن يتصرف وفق ما تمليه خطورة الجريمة.

بدأ السيد رجاءاته برقة حيناً وبعلو صوت حيناً آخر، ثم في احتجاج مستسلم محزون:

- والفضيحة؟! والناس! والجيران!؟

السيدة تلقي بأغلظ حلفانها بأنها ستقوم بالتصرف مع الشرطة بنفسها لو اقتضى الأمر.

لم نجد في نهار ذلك اليوم أية متعة حقيقية في الأشجار التي كنا نتسلقها، أو مطاردة الوز والدجاج، أو بتشعبط طوف البستان المجاور، أو لم الكمري المتناثر بين جذوع النخيل، أو حتى بالتعري والقفز في الجدول القريب.. لم نجد أية نشوة حقيقية، كان هنالك طعم مُر لخيبة أمل لا نعرف مصدرها بالتحديد... كان الفضول يجتذبنا من حين لآخر كي نعود من البستان لنقف بخشية وصمت عند مدخل الدار برهة قبل أن نتوجه بوجل وحياء محزون إلى السيد بأسئلة نتلعثم في طرحها.

.. الأسئلة المتعاقبة ووقوفنا إلى جواره وأمامه، تعجز عن كسر صمته.

يضع رأسه المتهدل بين راحتي كفيه بشكل كسير.. حين نرى أن لا أمل في أي جواب، نتحرك وجِلين لنقترب من السيدة المتوترة بجلستها فوق التخت، لنكرر بعض تساؤلاتنا بصوت مرتجف حذر..

.. يجبرنا صوتها الزاجر المرتفع إلى الهروب والتشاغل باللعب لفترة قصيرة في البستان لنعود للدخول خلسة إلى المطبخ، لنتنصت من وراء باب غرفة المؤنة المقفل إلى نحيب مسعودة وترنيماتها المنغّمة الحزينة.

***

طُرق الباب عند المساء.

استقبل السيد معاون الشرطة الذي دخل مُحيياً بملابس خدمته العسكرية الأنيقة المكوية جيداً، يتبعه شرطي ذو ملبس خشن فضفاض أكثر عتمة، وهو يتأبط دفتراً ضخماً.

كان الشرطي يكثر من ترديد كلمة (سيدي) لمعاون الشرطة الذي كان يُملي عليه بأنفة وبرأس مرفوع عبارات معقدة، يعاود بعدها الالتفاف إلى السيد في حديث هامس قبل أن يُملي من جديد.

.. الشرطي يكتب ببطء كبير مستعيداً الكلمة والآخرى؛ علوان عامل المضخة؛ حارس الليل في المنطقة..جارتنا أم عادل.. كنا في أعراس أصدقاء لنا.. في أوقات في الليل.. غرفة الضيوف مضاءة في غيابنا.. هذه بعض من العبارات التي تمكنت أذاننا من فهمها والتقاطها في تنصتنا من على مبعدة.

السيدة كانت تجلس على مقربة متشاغلة، غير أنها كانت تتدخل مقاطعة أحياناً:

– عليكم اتخاذ الإجراء اللازم، وإلا أرفع الأمر إلى جهات أعلى.

لا تنفع محاولات السيد إيقاف أمثال هذه المداخلات.

في صباح اليوم التالي كنا نجلس مقرفصين بحزن في إحدى الزوايا نتابع المسيرة المفجعة..

.. السيد يتوجه إلى الممر المؤدي إلى مدخل الدار.. مسعودة تكاد تتهاوى في مشيتها المترنحة أمامه، معالم ذهول وقنوط وخواء على وجهها الذي بدى ذاوياً.. العينان داميتا الاحمرار.. الجفنان منتفخان. الأنف متورم.. الوجنتان ملطختان ببقع من المخاط والملح والدمع والغبار المتيبس.

السيد طوال هذه المسيرة الشاقة، عبر ممر البيت كان جدار حماية لمسعودة من اندفاعات السيدة خلفه، وهي تحاول أن تصل بيديها إلى رأس مسعودة، وحين يقف السيد حائلاً دون الإمساك، بها ينطلق لسان السيدة بالعديد من مسميات الشتائم وأدعية اللعنة على الفتاة المغادرة أمامه.

رغم كل محاولات السيد المستميتة في أن تخرج بأمان، فقد تعقبها القباب الخشبي الثقيل ليصيب منتصف ظهرها، لتأنَّ متوجعة قبل أن تمرق من الباب المفتوح على وهج الظهيرة والأتربة العالقة:

- إلى صَقَرْ يا زانية... هاكِ أسلابك!

كانت هي الصرخة الأخيرة التي انطلقت مع الصرّة الخضراء إلى أتربة الشارع.

***

عند المساء تعالى صوت السيد باحتجاج وحزن فور عودته إلى البيت:

- إرتحتِ اللآن؟ لقد اقتادوا علوان إلى الموقف؟!

.....

تمضي الأيام ونعود إلى تسلقنا الصاخب لأشجار التوت وزرع الصوف في المزرعة الصغيرة، ونبش أطينة الجداول بحثاً عن ديدان وردية زلقة.

***

نلتف مع الوالدة والأخوات الكبار وجارتنا أم فاضل حول منقلة لفحم متوهج، ينتصب فوقها مسند خشبي، ينسرح فوقه ومن على حواشيه ملحف صوفي ليغطي الركب والسيقان والأيدي المخبأة اتقاءً لبرد الشتاء القارس.

هو ما يُطلقُ عليه الكبار جلسة (كرسي الشتاء).

مواضيع الأحاديث التي يتناقلها الكبار دارت عن الجارة عمة سنية، وحمامجي الزقاق المجاور وعلاقاته المريبة بزنوبة المخشلة بأسورة وحجول الذهب، وطلاق المنحوسة أم سعيد من أبو سعيد.

كانت رائحة قشور النارنج المحترقة تمتزج بعبق الكستناء وهي تشوى في المنقلة التي نلتف حولها.

قالت الوالدة وهي تنبش جمر المنقلة بالملقط المعدني الكبير:

– هل تدرين يا أم صباح بخبر مسعودة في النجف وهي في بيت صفية خان؟ لقد سكبت المسكينة صفيحة نفط كاملة فوقها وأشعلت في نفسها النيران؟!

تغامز الكبار فيما بينهم إشارة إلى تواجدي بينهم وانقطع الحديث.

نام جميع من في الغرفة معي.

كلما هممت بإغماض عيني في محاولة للإغفاء، ظهرت أمامي صورة الكلب الأجرب المحترق في البستان وهو يركض عاوياً برعب دون وجهة محددة،

ليصطدم بهذا الجذع أو ذاك، أو ليركض حاكاً جسده الملتهب بسياج البستان الطيني.. يعود فيتجه في إحدى اندفاعاته صوبنا فنتقافز هلعين متشتتين.

يستمر اللهب المتوهج في التقافز الأهوج، ويستمر الأنين في الظلمة. أرى الحدقتين المتوسعتين بالرعب.. أسمع كزكزة الأسنان المكشّرة البارزة البيضاء للجسد المشّوه بالكتل المتفحمة والأجزاء المتسلخة الحمراء التي تنز بسائل وردي صديدي.

تفوح في الغرفة رائحة شواء عفن زنخ.

***

الحمّى

يفتح طفل السابعة الباب الخشبي مقشر الألوان عند الفجر. يخرج من باحة البيت الطيني. يقف عند العتبة منبهراً من سعة المروج الخضراء أمام عينيه.

يركض بين صفوف المزروعات الممتدة دون هدف أمامه. يقفز من صف مكوّرات الملفوف إلى صف اللفت، إلى صف أوراق البصل يانع الخضرة.. يعود بقفزاته وهو يكركر بصوت عال إلى صفوف المزروعات السابقة وهو يسابق نفسه متقدماً في الحقل. يجيب على صياح الديك من بعيد مقلداً. يصل إلى جدول صغير تحفّ جانبيه أعواد الصفصاف ببراعمها الجديدة الخضراء ووريقاتها الرقيقة. يستلقي بين الأعواد ويقلد صياح الديك من جديد وهو مستلق على ظهره.

.. يصل إلى سمعه من بعيد نداء لميعة وهي تطلّ على الحقل من باب الدار يدعوه للإفطار..

..يقف وينصت لصفير القاطرة المقتربة.

من المحطة. يركض عبر الحقل ويدور حول بيت مدير المحطة الطيني..

.. يتكرر نداء لميعة وصفير القاطرة المتقاربة..

.. على رصيف المحطة يقف عباس بقامته المديدة وبدلته الأنيقة والقرنفلة البيضاء تزيّن ياقتها، وإلى جانبه يقف حارس المحطة ببدلته الكاكي وهو يهز الجرس النحاسي ترن ترن ترن ترن داعياً القطار للقدوم.

.. يتكرر صفير القاطرة وهي تبرز من خلف منحنى غابة النخيل مصعّدةً

دخانها الأبيض الأسود الرمادي الكثيف. جوك جوك جوك.. جوووك جوووك..

.. جووووك. قرقعة اصطدام العربات ببعضها. صرير العجلات على حديد السكة..

غمامة حمراء تغطي مساحة الرؤية تتلامع فيها بقع مضيئة بأحجام وأشكال مختلفة.. حمائم ملونة وغربان تعبر مساحة الفضاء الضبابي بسرعة.. قرقعة معدنية ذات رنين قاسي.. مكعبات خشبية كبيرة ملونة حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء تنهمر متساقطة من الغيوم العابرة فتخترق أعواد السقف وتسقط على أرضية الغرفة فتحدث قرقعة وصخباً.. القرقعة الرمادية المزرقة الصاخبة غيمة عابرة، تتكاثف فتحجب مجال الرؤية. أمواج من حُزمٍ ضوئية بنفسجية ووردية وزرقاء تتهادى طافية في الفضاء كأوشحة تلعب بها الرياح.. الجسد العاري الشاحب الضامر ينغمر بمياه مد متصاعد يصل حد العنق.. إحساس ببعض الاختناق.. قطع جليد تطفو وتترجرج فوق سطح الماء.. صوت من الشاطئ البعيد يعبر فوق صفائح الجليد ويرن صداه عن قرب:

- إشرررْبْ!

..إشربْ! قددددح الم..اء!.

***

عباس الطويل الأنيق ذو الفودين الفضين وياقته بالقرنفلة البيضاء يرفعني ويطوّح بي في الفضاء. تغيم وتختلط معالم الغرفة الخضراء بسريرها الحديدي العريض و(الكنتور) الأصفر مقشر الصباغ، بأحزمة الضوء المرسلة من بين قضبان الشباك الطويل وبذرات الغبار اللماعة السابحة في الحزم الضوئية، بشبحيّ لميعة وزهور، وهما تتقلبان بمرح فوق أغطية الفراش العريض.. أحط كريشة مترنحة بينهما على السرير.

.. ضجيج ضحكاتهما يرن طويلاً في سمعي.

يلتقط عباس سدارته من عالقة الملابس الخشبية الصغيرة المثبتة في الجدار الأخضر؛ السدارة سوداء تشبه القارب المقلوب. يفتح باب الغرفة فيظهر التنور في زاوية الدار مغموراً بالشمس؛ بضع دجاجات تدور في باحة الدار المتوهجة بالضياء، تصخب قرقعة الباب المصطفق وراء عباس وتطفو فوق الغرفة ظلال زرقاء وسكينة وردية شاحبة كابية.

.. ترن كركرات لميعة وزهور ككرات زجاجية ملونة ترتطم ببعضها..

..نصفي الأسفل عارٍ.

.. دغدغة لذيذة ساخنة تغمر عضوي الصغير وتصعد ببطء إلى أسفل سرتي وعنقي ومنابت شعري.

.. ترنُّ قهقهات الزوجتين بصخب من جديد..

.. تتربعان فوق فراش السرير متقابلتين أمام نصفي العاري.

.. أرى فصوص خواتم أناملها تتلامع بشكل عشوائي حول قضيبي المحمّر المتوتر..

.. تسري الدغدغة الساخنة متسلقة جسدي..

.. غمامة حمراء تلفحني بحرارتها وتلفني فتضيع كل المعالم:

- إشربْ! اشرب قدح الماء... إشربْ.

***

أجهد لأفتح عيني.. شبح ضبابي ينحني متماوجاً فوقي.. أحس بالشبح يفرش فوق جسدي العاري رملاً ندياً بارداً، ينهمر الرمل الندي البارد فوق جبهتي ورأسي..

.. ارتعاشة تجتاح جسدي كريح قطبية مسرعة موحشة..

.. غيمة بنفسجية تلفّ السماء.

..كرات شوك تتدحرج في الشارع الثلجي المقفر، الريح تصفر كذئب يعوي في برية مقفرة.

.. وجوه شمعية هنا وهناك تبان عبر نوافذ العمارات الكئيبة تبحلق أحداقها دون هدف أو تعبير في فضاءات مجهولة..

.. شبحها الضامر يطل عليّ من عل بعينين دامعتين من شرفة شقتنا في آخر الزقاق.

..من معالم شفتيها الباهتتين أقرأ ما تكرر قوله: " طرّه؟! كِتبه؟! طرّه؟! كِتبه؟! طره..".

جارنا الثمانيني (سفين) يدور حولي بوجهه الممتلئ الأحمر وتدور حوله وحولي قططه الأربعة. يهمس بحزن في أذني بأن هرّه المعمّر الأكبر مصاب بسرطان القولون.

.. يسأل سفين بأسف حزين ‘‘هل نحن نغادر السويد لأنه أخطأ مرة في القول أمامي إننا (يافلا انفاندرره).. اجانب لعينون نأتي فنستحوذ على أعمالهم.

.. شبح الرجل العجوز، يهمس في أذني:

- " إنني أحبك حقاً وإني لم أكن أردد إلا مايقوله الآخرون دون وعي لما أقول. تعال معي، إنني أدعوك لجولة في قاربي في أرخبيل ستوكهولم وسأحضر السندويجات والمشروب وعدة صيد السمك.

..لا تغادروا إلى الجزيرة الضبابية البعيدة!!.. سأعود آنذاك من جديد إلى وحشة وحدتي المقيتة.."

..أكافح العاصفة وأنا أسير في الشارع المقفر وإبر الصقيع المتطاير تنغرز في وجهي المتورم. حين أنحرف لأدخل زقاقاً جانبياً، أغوص بركام الثلج لما فوق الكاحلين. .أدفع بوابة سوداء ثقيلة فتصرّ صريراً يقشعر له بدني.. أرتجف من جديد.

- أنت عاطل عن العمل وتجلس الآن مع العاطلين عن العمل الآخرين وهنالك أعمال تنظيف وجمع قمامة.

تقولها موظفة (الكمون) السمينة بصوت آمر ووجه صارم متوزم.

أخرج هارباً إلى الزقاق.

.. العاصفة الثلجية على أشدها.. سهام الصقيع تنغرز في وجهي.

.. تركض موظفة (الكمون) السمينة في الزقاق ورائي صارخة.. يهرول من خلفها عدد من موظفي المكتب، حمر وشقر وصفر، يرتدون معاطف طويلة سوداء وعوينات بعدسات ثخينة كبيرة.

أسارع الجري غائصاً بأكوام الثلج.

.. أنحرف إلى الشارع الرئيسي وأتجه فيه على عجل.

.. من على شرفة شقتنا ألمحها من جديد بشبحها الضامر تهز رأسها كالدمية الآلية المنصوبة.. دموع قد تجمدت كاللآلئ فوق وجهها المرمري وأقرأ شفتيها من بعيد: طرّهْ...! كِتبهْ.!.. طرّهْ!... كِتبهْ... طُرّه.طُرّه.

من وسط العاصفة الثلجية، يتصاعد بخار حارق..ترتفع السحابة الحمراء ببطء من قدمي المنغرزتين في الثلج إلى وجهي الملظوم بإبر الصقيع.

.. تلّفني أبخرة ذات رائحة توابل هندية. يتصبب العرق وينساب كجداول صغيرة من جسدي غير أنه سرعان ما يتجمد ويغلفني كتمثال بلوري..

.. تعود الأبخرة ويعود الشبح للظهور. ينحني فوقي، يرش فوق جسدي العاري الرمل الندي البارد..مرة أخرى.. صوت يرتفع: طُرّه! كِتبه!

''مستشفى بنغازي ودار وراتب مجز: هو كِتبه''.

''السويد؟ المجهول؟! أوربا الضمان!! هو الطرّه..''

''طرّه؟! كِتبه؟! ..طره... كتبة''.

ويتعالى صوت المنادي: ''تعال! تعال! والعب طره كتبة... تعال''.

أقرأ شفاهها من على الشرفة وهي تكرر وتتمتم مرتعدة في الشرفة وسط الثلج المنهمر الذي لا ينقطع من السماء، والريح تلعب بذؤابات شعرها: طرّه..

كِتبة... طرّه... كت..

أرمي قطعة النقد المعدنية... تسقط، تدور حول نفسها وتهمد على رصيف الشارع... أقف مشدوهاً متجمداً، أنظر بعينين جاحظتين دامعتين إلى نقش رأس الزعيم المحفور فوق (طرّة) الصفحة المعدنية. أنحني ويكاد رأسي يلامس معدن العملة.. رأس الرئيس يرتفع وتحدق عيناه بغضب في وجهي.

طائرة تعبر مجال الرؤية، دوي الطائرة ومنظر الغيوم تحتي يبعثان القشعريرة.

أسخن من جديد.. المجهول ساخن ومحموم وصاخب وضاج ومدوّخ. غثيان شاحب الصفرة. تطول رغبة التقيؤ ويستمر التعرّق.. تتهادى ببطء الغمامة الوردية الساخنة وتلف المشهد من حولي:

- كاظم!... وينك يا نِنّي!!. كاظم... كاظم!

نِنّي وليدي المغدور. يتعالى صوت نسوي متحشرج.

يدور ننى بين الأزقة الضيقة المهجورة في حر الظهيرة حاملاً بين ذراعيه أكياس الخضار وسفط أرغفة الخبز والعرق يغمر وجهه لاهثاً من لفح جدران الأزقة حوله.

.. يصل باباً عتيقاً مهترئاً مواراً عند آخر أحد الدهاليز الضيقة ويدفعه بقدمه.. يهرع أربعة صبيان صغار يتدافعون بمرح وهم يركضون صوب الرجل الداخل:

"إجه كاظم.. إجهْ نّني.. إجه كاظم!... إجه ننى!!."

.. يتناهبون أرغفة الخبز من يديه... تسقط أكياس الخضار وتتبعثر محتوياتها على أحجار أرضية الدار.. يلتقطون بذرات الطماطم ورؤوس الملفوف والقثاء والباذنجان..

أم كاظم تركض تجاههم صارخة "خلوا أخوكم يأخذ نِفسَه يا مكموعين بعد شغله وتعبه وهجولته بالبراري. أبوكم النذل عباس أبو النسوان سوّد الله وجهه...

أبوكم السرسري النذل عافكم وأخذ نسوان اثنين وخله أخوكم المسكين يبتلي بيكم. ربي يهجْوّله مثل ما هجوّلكم".

ارتفع هتافها بالدعاء حتى أصبح صراخاً متباكياً وعلت الولولة والضجيج واستحالت صخباً ساخناً.

.. سيول العرق الساخن تهطل من الغيمة العابرة الحمراء، قشعريرة وارتجاف وقرفصة.

أم كاظم تركض ورائي إلى الزقاق المترب، تصرخ مناشدة "دخيلك... دخيلك، شوف إلنا جارة. دخيل أمير المؤمنين... دخيل الحسن والحسين".

..يزداد الضجيج..

..تطفو الغمامة الحمراء فوق الغرفة. تهبط فتغرق كل الأصوات والمعالم.

تبرز من الظلمة كسعلاة خرافية بشعرها الأصهب المعثكل المنكوش ووجهها المتوزم المليء بالنمش. تتقدم والعينان محمرتان بالغضب والنقمة صوب

الرجل المسجى على الطاولة الحديدية الملوثة بالقيء والبراز والذي اختلطت معالم وجهه وتخثرت كتل دامية عند أطراف أصابعه المتورمة..

.. تتقدم... تتقدم..

.. تتقدم وبيدها كماشة حديدية ضخمة مشرعة الفوهة.. الرجل يتوسل بصوت متهدج متحشرج:

"دخيلك ارحميني... أنا زوجك...! زوجك!... زوجك"...

.. رجلا الأمن الضخمين بشاربيهما الكثين يقهقهان، يحثانها بشماتة ساخرة:

- إخصيهْ!، إخصيهْ!... يلّه يلّهْ!... اخصيييه!".

تعلو القهقهة أكثر وأكثر وترن في القبو المظلم.. صدى الكلمة يتكثف ويرتطم.

يتعاود ارتطامه بالجدران الخرسانية العاتمة. تتكور الكلمة، تتجوف، تنتفخ، تنفجر، تتناثر حروفها وتتساقط على الأرضية الملساء وتتقافز. تعبر الغمامة الحمراء البنفسجية من جديد مساحة الرؤية المضببة. تلتف الغمامة في حزمة مخملية عريضة. تعلق عند أعلى المشهد..

.. تنسدل ستارة الغمامة المخملية ببطء وهدوء ساكن. يتصاعد تصفيق صاخب.

تبرق أضواء تغشي بصري وتبعث صداعاً حاداً له ضجيج ورنين.

أسمع صوتاً يلتف ويرتفع مع ضباب وأبخرة الوادي العميق الذي أنا على حافته:

- إشربْ قدح الماء البارد... إششششربْ!

القذيفــة

القدذيفة (١)

صرّت البوابة الحديدية المخرّمة بشظايا القذائف، ولفتحها لما يسمح له بالخروج، اضطر إلى رفعها بجهد عضلي غير قليل، فقد تلوّت صفائحها المعدنية نتيجة القصف والعصف المتكرر ثم بجهد غير قليل آخر أعادها إلى مكانها السابق من الإغلاق.

توقف ليستريح قرب البوابة ولم يكن هنالك من صوت يسمع في الجوار غير وشوشة سعف النخيل وفحيح لهاثه من الجهد المبذول. وحشة المنطقة المهجورة من ساكنيها كانت خانقة، ببيوتها الفارغة، بزجاج نوافذها المهشم، بثغرات جدرانها وأسيجتها، بأشجار حدائقها المتيبسة، وبذلك الغبار المتراكم الذي يغطي كل ما بقي من معالمها.

بدى خيال ابتسامة شاحبة تلوح على وجهه، تنامت شيئاً فشيئاً وهو يلمح ويتابع قفزات عابثة لجرو صغير غير بعيد عن مكان وقوفه.. توقف الجرو قليلاً عن تقافزه ليدير رأسه يميناً وشمالاً متفحصاً إياه من بعيد بصمت، ثم بنباح متقطع يعلمه أنه فرح وأن له صوت يسمع، وأنه يرتاح إلى وجوده غير بعيد عنه.

"ها أنذا يا صاحبي، تعال نتعارف! تعال نلعب ونعبث سوياً!"

أخذ يهزّ ذيله القصير برهة وعاود قفزاته العابثة متجهاً صوب كومة من السعف ترامت عند قاعدة جذمة نخلة نخرة..حاول سحب قطعة سعف متيبسة.. كزّ عليها بأسنانه بشدة مصدراً زمجرة غضب وتحدي.

ترك المحاولة اليائسة واستمر باركاً عاضاً إياها وهو يهز رأسه الذهبي الصغير يميناً وشمالاً ومصدراً زمجرة غضب غير جدّي.. ابتعد عنها قليلاً ونبح صوبها لاعناً قطعة السعف البغيضة التي لم تطاوعه.

ارتفع فجأة على قوائمه المتصلبة الأربع.. رفع رأسه وانتصبت أذناه. كان جسده كله يشاركه إصغائه المتوجس المتوتر. انطلق منه فجأة عواء وولولة خوف باكية، ثم أخذ يركض مذعوراً صوب الشخص الواقف عند البوابة وأخذ يتمسح بساقيه مواصلاً عواءه، رافعاً بصره صوب عيني الرجل المنتصب فوقه في استعطاف ذليل، ثم تكوّر بعدها على نفسه واضعاً رأسه الصغير بين قائمتيه الأماميتين وهو يرتجف.

تجمّدت حركة الرجل وهو ينظر باستغراب وحنان إلى الجرو الملتجئ الخائف....صمت مطبق.. صمت له رنينّ غامض وموحش.. لم يستمر الصمت طويلاً فقد أعقبه رنينٌ أعنف لزوبعة من الضجيج واللغط الصاخب ورضجعْ أصداء من محاور عديدة ووشوشة اخترمت الأذنين ودارت كالزوبعة بين ظلامات أقبية الجمجمة التي أحسها الرجل تتوسع وتنتفخ، في الوقت الذي أظلمّت ثم تضببت وغبشّتْ الرؤية.

.. توقف الزمن فترة غير معلومة، وتتابعت لقطات متداخلة لمشاهد حُلمية متقطعة.. استمر الرنين لأمد بدى غير محدود حتى بعد أن انكشفت رويداً رويداً معالم غير مفهومة لما يحيطه. مسح الغبار العالق بوجهه وفركَ جفنيه محاولاً إزالة الحرقة اللاهبة في عينيه..

.. غبار وأتربة غطّت مساحة الرؤية الضيقة.

رائحة بارود وخشب محترق اختلط بصدى طنين آتٍ من بعيد. طعم معدني يملأ فمه.

من ضباب بقايا الأغبرة العالقة، بدت فجوة النخلات المقطّعة والمجتثة في البستان القريب أمامه، وحين أدار رأسه يميناً صوب داره، كان جانب من أقصى سياج الحديقة قد انهدم، ومواقع جديدة لزجاج مهشم في النوافذ العليا من الدار..

..أفاقَ من ذهوله على حركة دافئة رقيقة عند ساقيه. نظر إلى الأسفل؛ كان الجرو الصغير يستعيد بعض نشاطه.

.. أخذ يتمسح بساقيه من جديد وهو يدير رأسه مرتبكاً في اتجاهات عديدة..

..سكنتْ حركته برهة قصيرة.

.. رفع بصره بجذل صوب عيني الرجل المنتصب فوقه.

.. هزّ ذيله ثم جسمه كله قبل أن ينطلق على عجل..

دخل بين الأشجار المغبرة وعند حافتها توقف لحظة قصيرة ثم استدار وهز ذيله بمرح.

رفع رأسه ونظر بحنان مشوب بالحزن ونبح صوب الرجل الواقف على مبعدة...صمتَ برهة، قبل أن ينبح بضع مرات وينطلق بعدها ليغيب بين نخلات البستان.

القذيفة (٢)

بعد أن خرج آخر المعزين بزوجته آوى إلى فراشه متعباً. وضع رأسه على الوسادة وبدأ شريط الأحداث يظهر بلقطات متقطعة أمام شاشة ذاكرته.

"ربي لك الشكر.. ربي لك الشكر ولأنت أرحم الراحمين. شكراً يا إلآهي. كنت عوني يا رب، لقد أحطتني بكريم رعايتك وعطفك، لقد أنقذتني بهبة من سماءك... هبة من سماءك الواسعة".

***

"أي خلل في الكون حصل. ما الذي قلبَ الأوضاع كلها؟.. كيف تغيرت هذه المرأة الوديعة لدرجة تقرب من الذلة، المتواضعة الملبس، الأم الحنون، المؤمنة على طريقتها بالله والدين، ومتى؟! أفي سنها الذي جاوز الأربعين، أفي زمن أولى الشعرات البيض في الفودين؟ أفي الزمن وولداها والفتاة المراهقة على أبواب الزواج. ولم يبق إلا إكمال دينها بالحج معي سوية ".

"كنت ألحظ تَبدلاً في اهتمامها بملبسها وفي ظهور أصباغ ومساحيق ودهون زينة جديدة. لم أعر ذلك اهتماماً يذكر، ولم لا! .. لعلها تريد أن تخفي بعض تبدلات الزمن كي لا تفقد اهتمامي بها كامرأة "..

"ثم بدأ حضور صديق العائلة القديم إلينا يتكرر بشكل ملحوظ في كثير من المناسبات، وحتى دون مناسبات معينة، ومع حضوره يتزايد اهتمامها بملبسها وزينتها ويشرق وجهها بالارتياح الذي تحاول أن تُداريه عني، باللغط والأحاديث.. ثم بدأت بعد حين لا تخفي سعادتها وانطلاقتها بحضوره".

"بدأت غياباتها عن البيت تتزايد وما أكثر الحجج التي تبدو منطقية وغير قابلة للجدال ".

"الشك وعذاباته أولاً، ثم اليقين المدمّر، تلتها الحيرة المدوّخة في البحث عن مَخرج يشغل كل نهارك ويجعل من أرق الليالي جحيماً. شكراً لك يا إلهي، يا من لا حدود لرحمته الواسعة، يا عظيم!.. يا مُجير! ".

" وكأن خلل البيت لم يكن كافياً لتأتي الأحداث الدامية في البلد لتكمل المأساة ".

وبدأ القصف الأهوج يصل إلى كل ركن من أركان المدينة وتزايدت مجالس الفاتحة، وكثرت يافطات النعي السوداء المعلقة على أسيجة المنازل. إنتقل مسار الأحداث لمنعطف أخطر... بدأت محاولاتها في إقناع إبنتها الصغيرة قبل إقناعي، بقبول تقدم هذا القريب الدخيل الطارئ للزواج، رغم فارق السن، ورغم نفور الفتاة منه. المجابهة فضيحة والفضيحة عار، والعار يلحق بمستقبل الشابين والصبية المراهقة".

"كم من طريقة للخلاص منها ابتكرتُ ".

"نزهة في قارب في شط العرب، ينقلب وهي لا تعرف العوم ".

" خلل في باب السيارة وسقوطها وهي تنطلق بسرعة هائلة ".

"انزلاقها عن منحدر صخري مرتفع إلى الهاوية السحيقة أثناء رحلتنا الجبلية في الشمال ".

"قنينة غاز غير محكمة الإغلاق. في مدفأة غرفة النوم... و..."

"لا، لا، لا أستطيع. الله يعطي والله يأخذ. هي روح ولست أنا من يستطيع إزهاقها ".

"كم من الليالي وهي نائمة ملء جفنيها وأنا في جحيم أَرَقي أدعو الله بكل جوارحي أن يأخذها أو يأخذني فأرتاح من عذاباتي ".

"حتى في أمسيتها الأخيرة وهي تصّر على الخروج لإحدى زياراتها التي أعرف ما وراءها ورجاءي لها وأنا أتبعها إلى الباب أن تمتنع عن هذه الزيارة، أو أن تؤجلها إلى حين. كنت آمل أن تصحو وترجع عن غيّها، وأن تستعيذ بالله من شيطانها الرجيم، والتوبة مقبولة عندك يا إلهي".

"لكن شيطانها غَلبْ، وخرجتْ مغلقةً الباب وراءها بعنف".

"سبحانك ربي، يا قدير! يا مجير!... استجبت أدعية الليالي".

"لم تمض إلا ثوان معدودة وثار هذا الصخب الهائل والرنين المعدني لألف صفيحة تتمزق، وموجة عارمة حارة ألقتني بعيداً عن الباب، وعاصفة من الزجاج المهشم والأتربة عبثت بالدار، ورائحة معدنية وخشبية محترقة".

.. أوشكَ على الإغفاء، وبآهة حرّى أخذ يردد في الظلمة هامساً:

- شكراً لك ياربي على نعمتك.. عليها رحمتك! واغفر لها ذنوبها وهي في دارك الآخرة.. لقد أرسلتها هِبةً عطوفة من السماء.

***

القذيفة (٣)

نشر الأول الوجبة الأولى على حبل الغسيل وعاد ليدعك ما تبقى من ملابسه المنقوعة في الطشت.

الثاني كان قد أتم وضع كل ما يخصه في حقائب وصرر ثم ركنها في إحدى زوايا الغرفة..

الثالث أخرج رزم الدولارات الصغيرة من مخابئها ليضعها في مخابئ جديدة في بطانات الحقائب وفي زنارات سراويله وبين كل ما لا يسترعي انتباه رجال الكمارك، على حين كان الرابع يدندن أغنية (بلدي يا بلدي، أنا بدي أروح بلدي) وهو يعد أقداح الشاي على طاولة عتيقة صغيرة في باحة الدار المكشوفة.

.. نادى على رفاقه أن يتركوا كل شيء إلى حين، فقد حان موعد جلسة الشاي المسائية الأخيرة قبل السفر.

أخذ الأول رشفة من قدحه وأطلق آهة ارتياح ثم بدأ يروى تفاصيل لقاءه المتوقع غداً مساءً بعد وصوله إلى قريته، التي غاب عنها سنوات ثلاث وكيف سيأخذ بالأحضان زوجته وولديه الشابين وابنته، وكيف سيتعلق أصغر أبناءه بأذيال جلبابه مؤكداً تواجده، ثم لا يلبث أن تتقاطر أفواج الأقارب والأصحاب لتمتلئ بهم الدار بعد أن يشيع بسرعة خبر عودته، ويعم الهرج والمرج وتكثر القبلات وتصدح الزغاريد. وفي الفراش الدافئ

وبعد التواصل الذي طال انقطاعه، يبدأ الحديث الهامس عند الفجر عن الذين يتوقع قدومهم لطلب يد الصبية، ومن فيهم سيكون الاختيار الأفضل، ولابد أن ينتقل الحديث عن الابن الأكبر وتزويجه، ثم يعقب ذلك شجار أكيد عمن سيكون الأول في الزواج الابنة أم الابن...

***

الثاني كان حديثه كله منصباً عن الانتقال من القرية إلى الدار التي سيتم إكمالها في أطراف المدينة، مبنية بالطوب والإسمنت، بغرفتين وشرفة تطل على الحقول وبها حمام ذو باب زجاجي، وقد يكفي ما جمعه في سنوات الكدح في الغربة أن يبدل الموقد الحجري بطباخ غازي...

***

الثالث حكى عن فدانين الأرض التي أرسل مقدم شراءها قبل أشهر وعن عربة النقل والحصان، الضروريان لنقل السماد والعدد والفسائل ومحصول الأرض في السنة التالية، وكيف يمكن للعربة أن تنقل بضائع من في القرية فيسدد بها تكاليف شراء بعض أشجار الحمضيات وأربع شجيرات للمانجا.

***

دندن الرابع وهو أصغرهم سناً (بلدي يا بلدي أنا بدي أروح بلدي) ثم ابتسم حالماً وابتدأ الحديث عن أحلى الصبايا؛ زهرة القرية ال...

***

حين قطع صاحبهم درب البستان المقفر ليصل إلى دار أصحابه الأربعة لاستلام مفاتيح الدار شاهد من بعيد مركبة تشبه سيارات الإسعاف، وأدرك على الفور أنها نفس المركبة المعدة للملمة ونقل الجثث بعد حوادث القصف والتي كانت معروفة لسكان المدينة الذين أطلقوا عليها تسمية (عزرائيل).

قرأ سورة الفاتحة وعاد إلى أفكاره، وما سيتركونه له ورائهم من عدد وفرش، كان فكره منشغلاً بصعوبة موقف وداع أصدقاءه قبل السفر وبالرسائل الشفوية التي سينقلونها لبعض أهله وصحبه في الوطن البعيد ووحشة فراقهم في الغد حين يعودون إلى مصر. "ما هيّه حالِ الدُنيا. سايْرهْ ومتغيّره.. سايرهْ

وإحنَّهْ مَعاها سايرينْ". .. ابتسم لأفكاره.

ارتعشت خطواته وهو يقترب بوجل وحذر؛ قطيع من الكلاب، يسرح قرب وعبر الباب الممزق المخلوع والسياج المتهدم.

.. وقف مصعوقاً غير مستوعب للمشهد الغريب أمامه؛

..الدار مهشمة النوافذ.

.. أبوابها المخرمة المخلوعة تترامى هنا وهناك..

.. قطع متناثرة من خليط أحذية وبقايا ألبسة ممزقة وكِسرْ صحون وأقداح. كلها،.. كل ما حوله معفر بأتربة سوداء.

لم يكن يقطع رنين الصمت الموحش في رأسه غير زمجرة الكلاب وضجيج عراكها.

جرجر خطواته المرتعشة بإعياء ليُطلَّ من فسحة الجدار المهدّم على أنقاض الدار المسوّدة.

..في حديقة الدار المتربة نافورة تندفع من أنبوب ماء منكسر..

..طشْتْ به ملابس مغمورة بنقيع الماء والدم..

.. بضعة أقداح شاي مهشمة، وحبل غسيل مقطوع لا تزال بعض المزق عالقة فيه..

.. فردة نعال مطاطي وطاقية دامية ممزقة.

تهاوى بجسده منهاراً على كومة أحجار وأتربة السياج المتهدم قربه.

استوعب من المشهد المتضبب أمامه أن عراك الكلاب المزمجر كان على بقايا ذراع ممزق مسوّد دامٍ.

***

ظهورُ نبي

– هذا البلد العجيب الرائع الصاخب بالحياة والنشاط، المليء بعجائب الناس والأزياء والمتنزهات وأماكن اللهو والمتاحف والأبنية العتيقة والمنظم إلى درجة لا حدود لها في الوقت ذاته.

كم أنا سعيد بهذه الفرصة المفاجئة المتاحة. شهر من المتعة الكبرى لم أكن أحلم بها قبل فترة وجيزة، اسمها مهمة تطوير خبرات.. إيفاد وظيفي، لكنها في واقع الحال ليست إلا مكافئة؛ نزهة مخططة.

– إنهم يكافئونك إذاً يا حمدان؟! هذه المكافئة يا ترى لقاء ماذا؟ إنهم لا يعطون شيئاً دون ثمن.

– أي شيء يستحق المكافئة أكثر من العمل الدؤوب والنزاهة والإخلاص في تأدية الواجب.

– منذ متى كانت هذه المزايا تستحق المكافئة، إنها تستحق العزل والتحقير والإبعاد في عهد المحسوبيات والرشاوى والترقيات على حساب الولاءات لا لحزبهم فحسب، بل لأفراد عشائرهم من الأزلام وقطاع الطرق الذين تحكّموا برقاب الناس. وجود العنصر النظيف النادر يكشف نتانة العنصر الملوث.

يجب أن يُجَر إلى المستنقع "وما فيش حد أحسن من حد".

– لكن هذا الذي حصل، أرسلوني وكما ترى.

– ألم تسجل اسمك في سجل تشريفات البعث.

- أبداً!

- حتى ولا إشارة منهم إلى أن هنالك شيئاً بالمقابل؟

أخذه السهوم فترة قصيرة، وأطرق وكأنه يحاول أن يحل لغزاً شغله:

- حين راجعت المحافظة لتوقيع أمر الإيفاد طلب المحافظ مقابلتي وهنأني على الإيفاد. نعم ابتسم وهو يسلمني الأمر قائلاً "حين تعود سأراك ولنا معك حديث. اذهب واستفد، ولا مانع من أن ترى وتستمتع. لا تنس موقفنا هذا معك! "

- لن يطول الأمر على ما أعتقد. سيذكّرك المحافظ بعبارته: "وعليك أن لا تنس موقفنا معك!"

إنهم من جماعة سلّمْ! بلّمْ! "لن يتركوك يا أخي (القائد)!

إلا وقد سلّمت رايتك ومعها رقاب من انضم تحت لواءك.

فجأة بدا عليه شحوب الأموات.

- له له! لا، لا! معقول كل هذا! وما العمل الآن؟!

صمت حمدان لحظة ثم أخذ يختض كمن فاجأته الحمى.

***

كان وليد قد وصل قبل يومين في زيارة إلى أهله من الكويت، لقد قطع مسافة المائة وستين كيلومتراً في أسبوع كامل وكانت توقفاته في محطات الاستراحة إجبارية، فقد استراح يومين في مخفر الشرطة الحدودي قبل أن ينقل إلى مخفر البصرة ليقضى هناك يومين آخرين، وحين اكتفى لحد البكاء من حرارة ترحاب القمل والبراغيث هناك، ناشد كل من له باع وكلمة من صحابه القدامى وأقاربه، في نقله إلى موقف العشار الأقل قملاً وبراغيثاً. أتم رحلة المائة ميل ووصل إلى دار أهله بشفاعة كبيرة مشروطة.

في جلسة ترحيبية نحن صحابه القدامى نسكر احتفالاً في حديقة دار عائلته بعد يومين من وصوله.

- مستمتع أنت في الكويت. أستاذ جامعي مرموق أنت هناك، وزوجة صغيرة جميلة، ووضع مادي مرفّه. ها أنت قد وضعت الوطن والنضال على الرف!

قالها حمدان لأخيه بتعته السكر وبلهجة ساخرة.

نظر وليد إليه مطوّلاً قبل أن يجيب:

- الغربة أقسى من قمل المواقف وتحقيقات الشرطة والانتقال من مخفر إلى آخر. لم أغادر إلا بعد أن رأيت الأهوال في قصر النهاية، ولم أُصدق أنني حي أرزق حين أفلتت من المكان الرهيب بمعجزة يا اخي. قالها وأخذ جرعة من الكأس الذي أمامه وواصل حديثه بهدوء: أما عن موقعي

ومكانتي في الكويت يا شقيقي حمدان، والتي تحسدني عليها، لقد فتحوا أبوابهم وقلوبهم للهاربين من مجازر ثورة البعث المجيدة. كثر الله خيرهم، ولكن الغربة قاسية الثمن، ولا تنس يا صاحبي الناعم المتأنق، أن لا نضال خارج ساحة الوطن. ومع ذلك لقد كنت قانعاً وسعيداً بأقل من هذا بكثير هنا في الوطن الجحود قبل أن أهرب بجلدي.

كنا نودع وليد نحن الثلاثة هذه المرة. وكيف تستطيييع... يا... صديييقي ووليييد ترك الوطن... وهو بببحاجحة إلييك!

- الغربة أرحم من قمل المواقف ومهانة الناس واستباحتهم أرحم من عصابة السرّاق الجديدة. دعنا من هذه العنتريات يا أخي حمدان السكران. لا فائدة ترجى، كل من عرفته من صحابي ممن كان ميّالاً إلى اليسار أو حتى من كان في التنظيم، قد غدا بعثياً، واحتلّ مناصب جامعية مهمة. في عهد هذه الجبهة العظيمة، تحت سقيفة البعث الجديدة، وفي كل تجمع وبكل محفل يتواجد فيه رفاق الجبهة تعلو الهتافات "شعب شعب كله بعث! ..شعب شعب.."

- لكنه الوططن!... الوطن!... ومهمممة الننضال!؟.

تعتع حمدان مكرراً كلماته النضالية السكرانة.

- كفى يا صاحبي، لم أعرفك إلا مهتماً بنفسك وباختيار بدلات عصرية جديدة والاستمتاع بأحاديث الصبايا التي كنت تتعرض لهن في عملك

وجلسات السكر مع شِلة من الصحاب. وبالطبع تقلباتك، فبعد محاولات فاشلة مع الرسم، انقلبت تخبّط في جداول النحو. ثم محاولةٌ فاشلة مع الموسيقى ودروس العود، الذي أهديته بعد بضع جلسات إلى مدرس العود الخصوصي..

صحيح أن لك مبالغات فلسفية عسيرة وأفكار إنسانية طوباوية ومحاولات شعرية لأوقات الفراغ، تتبع فيها (المودة) ومجالات اهتمامات تتذبذب من التبحر اللاهوتي إلى الإلحاد، إلى الجداول الهندسية للسلالم الموسيقية في الأوزان الشعرية، إلى الإيمان المطلق بالبهائية كمخرج للبشرية في حال توظيفها وتطعيمها بفلسفات هيغل وماركس.

لم أتصور أنك ستكون منتمياً في أي يوم أو أنك ستدخل أي تنظيم حزبي جاد وتأخذه كقضية واجب ومبدأ.

– إنك تغمطني حقي. لقد بعدت عني مدة طويلة، إنك لا تعرفني الآن حق المعرفة. لا خشية من البوح أمامكم فنحن اهل وأصدقاء خلص مؤتمنون على السر..إيييه يا اخي!.. لا حرج بأن أقول لك إني لست في التنظيم فحسب؛ إنني قائد يا وليد!... هل تعرف معنى قائد... قائد!، وقائد ثوري يحسب حسابه.

ضحك وليد بشكل مكتوم. ثم سكت وراح في تأمل عميق خارج حدود جلستنا، وبدا مهموماً بعض الشيء.

– نعم قائد، ولي أتباعي! استمر حمدان.

- يا لمأساة الثكالى من الأمهات.! أرجو أن لا يكون مصير أتباعك نفس مصير أتباع عزيز الحاج. قالها وليد وكأنه يخاطب كوناً سحيق الأبعاد، وهو يستعيد المشهد التلفزيوني.

***

" إنك لا تستطيع أن تستمر في أن تنطح رأسك في جدار خرساني صلب".

جدار البعث الجديد. درب النور الجديد.

استمر المتحدث في لقائه الذي عرضته قناة التلفزيون على المشاهدين، بعد أن نبّهت مراراً، بلهجة خطيرة، إلى وجوب انتظار بيان ولقاء تلفزيوني هام يأتيهم بعد قليل..

.. استمر (القائد) في تبيان حماقة اليسار الطفولي والأخطاء التي وقع فيها الحزب وجماعة كفاحه المسلح. "طريق النضال كله ما هو إلا مسيرة من الضياع والأخطاء".

.. استرجع وليد المشهد الذي نُقل إليه، عن صديق عمره (نوري)، الذي كان يتابع الاعتراف التلفزيوني، وكان يعرف أنه من متحمسي تنظيم الكفاح المسلح، وكيف بكى بلوعة أمام الآخرين وهو يتابع حديث القائد المتخاذل، وكيف سارع في اليوم التالي إلى الانضمام إلى أجهزة الأمن الصدامية.

***

– ها قد عدت من إيفادك السياحي يا حمدان، مبروك عليك، أنا نفسي لم أحظ بمثل رحلتك تلك. أنا موعود بمثلها منذ زمن. على كل حال يبدو أن المحافظ يضعك في موضع الرعاية الخاصة. سعيد الحظ أنت يا رجل. لقد كلفني المحافظ بأن أزودك بهذه الأوراق لتملئها. لقد زكاك هو بنفسه أمام المنظمة.

– ولكن أنت تعلم..

فقاطعه الآخر:

– انتبه يا حمدان، إياك ولعبة الممانعة! .. ولكن!.. وكيف!..ما أنا إلا ذلك المكلف بمهمة التبليغ، وأنا أقوم بها الآن بحكم صلاتي الطويلة معك وبحكم الصداقة القديمة التي تربطنا. أنا لا أريد أن تُضطر إلى موقف مغاير مزعج وسيء مع غيري..ثم مواصلاً بلهجة حازمة فجائية:

– لا لعب أو مناورات في هذا الأمر! لابد أنك كنت تعرف أنها هي الخطوة اللاحقة حين تقدمت بطلب الإيفاد. سأترك الأوراق معك وآتي بعد ساعة لأنقلها إلى المعنيين. أما التعليمات الأخرى وعلاقتك مع التنظيم فسيقوم بها شخص غيري. أعدك أني سأوصيه بك خيراً .

***

بعد مغادرة المبعوث لم يستطع حمدان السيطرة على القشعريرة والتعرق اللتان كانتا تتناوبان عليه. كان يعاود إمساك الأوراق بيد مرتعشة والنظر إليها، وتغيم عيناه عن متابعة سطورها. يضعها مرة أخرى على منضدة الكتابة ويسارع للتبول من جديد.

معلومات خاصة جداً، معظمها تلك التي لم يشرك في تفاصيلها حتى أقرب الناس إليه. أسماء الأعمام، الأخوال، الخالات، الأقارب البعيدين، أسماء الأصدقاء، كل ما يتعلق بهؤلاء؛ الانتماء، درجة الانتماء والمرتبة في أي تنظيم خارج البعث، أسماء من هم معه في التنظيم، درجاتهم الحزبية، موقف كل من ذكرهم من الولاء للبعث.

في الأسبوع الفائت خمسة من جماعة قريبه سليم في خلية (التنّومه)، طُرقت عليهم الأبواب عند الفجر واقتيدوا إلى جهة مجهولة وذلك بعد انضمام سليم بأيام إلى التنظيم البعثي. وقبل شهرين سلموا جثث آخرين إلى أهلهم بعدأيام من التحاق رفيق آخر يعرفه إلى التنظيم البعثي.

عاوده الارتعاش وسارع إلى المرحاض.

***

كان آخر مراجع قد غادر العيادة وكنت أحس ببعض الإنهاك والحاجة إلى الاسترخاء وتدخين سيجارة بعيداً عن الأمراض والشكاوى والآلام التي كنت أحتاج إلى وقت غير قليل لغربلتها كي لا آخذ الكثير منها معي إلى لياليي المؤرقة، وكنت قد أذنت لمعين العيادة بالمغادرة قبلي، ناسياً أن أطلب منه إغلاق بابها الخارجي قبل مغادرته.

أطفأت أضواء الغرفة إلا من مصباح المنضدة الذي أبعدتُ ضياءه عني باتجاه باب الغرفة. يا للسلام الذي يغمرني وأنا أنزل ستارة سميكة على أحداث اليوم الطويل، كنت متدرباً على ما يشبه تمارين اليوغا والتي أستطيع معها وبعد دقائق، من إغلاق كل منافذ الرؤية الداخلية والخارجية والاستمتاع بلحظات من الصفاء الذهني انقطع حبل الصمت العميق.

.. سمعت صوت أقدام حازمة تجتاز صالة انتظار المرضى وهي تقترب ضاربة بقسوة كمارش عسكري بلاط الصالة؛ فُتح باب الغرفة على وسعه دون أي نقرة استئذان. انتصبتْ قامتي من وراء المنضدة بتحفز.. زال بعض توتري المفاجئ وأنا أرى قامة حمدان منتصبة عند مدخل الباب شامخة مزهوة. استمر حمدان في وقفته فترة غير قصيرة.

كان الزهو والترفع يبانان عليه رغم أني لم أكن أستطيع تمييز ملامحه بوضوح في ضوء الغرفة الضعيف..

تقدم خطوات وأصبح على متر واحد من منضدتي؛ شعره قد تجعّد واخشوشن، جبهته قد امتدت عليها غضون مستعرضة تتلامع عليها دهون

لزجة، فَصلتْ بينها حزوز عاتمة، الحاجبان قد ارتفعا وتقوسا بشكل أكبر، الأجفان قد غَلُظت. أما العينان فقد تلامعت على حدقتيها الحالكتين نجيمات بارقة.. كانت أنظاره المتراجفة في حركة بندولية سريعة تمسح كل كياني وما يحيط بي، في الوقت الذي يبان عليهما جذل لا سماء لحدوده. نصف شارب محفوف رفيع بدل ذلك الكث المتهدل قد ارتفع فوق النصف الأيسر من شفته العليا، على حين اختفى نصف الشارب الآخر من الجهة الأخرى. ابتسامة انتصار ومجد وزهو كانت تلوح ثابتة على شفتيه.

***

ارتفعت مكانة حمدان وظيفياً، رغم أن واجباته الإدارية والتنفيذية قد قلّتْ بشكل ملحوظ.

..كان يكثر من عقد الاجتماعات لموظفي دائرته ويمتد انعقادها لساعات طويلة، يكون هو فيها المتحدث الأكبر.

..أكثرَ من التدخين، وأفرطَ من شرب العرق في الليالي.

..تزوّج من رفيقة حزبية جميلة، كانت خفاراتها الليلية في مقر الفرقة تتزايد مع تزايد مكانة حمدان الإدارية، مثلما كان يتزايد تبرجها واهتمامها بمظهرها قبل مغادرتها الليلية إلى المقر مرتين أو ثلاث في الأسبوع.

.. كان الرفيق الخافر معها في المقر في معظم الأوقات هو ذاته المسؤول الأعلى لحمدان في دائرته وفي قاطع الجيش الشعبي.

شاب وسيم أنيق ثري من عائلة عشائرية لها نفوذها في كل عهود العراق الحديث، تمد يد العون للسلطة في (تأديب) العشائر الأخرى إن هي انتفضت أو علا صوت احتجاجها. غالباً ما أثنى المسؤول البعث القيادي هذا على حمدان أمام بقية موظفي الدائرة في الاجتماعات الموسعة وضرب به مثلاً في إخلاص الموظف المثابر وحث الآخرين على الاقتداء به.

خلا مجلس شرب حمدان من العديد ممن كان يجالسهم في أيامه الخوالي.

اختفى بعضهم بعد ما دقت عليهم الأبواب عند الفجر. هرب البعض الآخر إلى بلدان مجاورة قريبة وأخرى بعيدة قصية مطمورة بالثلج القطبي.

البعض القليل الآخر تحاشاه.

بدأت الحرب.

كان حمدان من المتحمسين الواثقين من الانتصار على العدو الفارسي، كان يردد:

- أيام ونستعيد أهوازنا ونفطنا في عبادان.

***

تبدلت دورة عجلة الحرب سريعاً، وبدأت القذائف تسقط فوق (أحياء المستكبرين) كما ينعتها المذياع الإيراني.

أزوره لماماً في داره، في الغالب أثناء معاينتي الطبية المتكررة لوالدته المقعدة. كنت أرقبه وهو يرتعد ويضع ذراعيه فوق رأسه هلعاً حين تتساقط بضعة قذائف ليست بعيدة تماماً عن الدار.

كان يختض ويقرفص بجسده في زاوية من صالة الجلوس فوق مقعده، يلتف بالأغطية ثم يتكور بكامله داخلها.

رغم ارتدائه زي الجيش الشعبي وبرتبة متقدمة، لم يرسل إلى الجبهة في السنتين الأوليتين للحرب، كان قائده في الجيش، رئيسه الإداري الوسيم يكتفي بتكليفه بخفارات ليلية في موقع عمله، وهي غالباً ما تتوافق مع خفارات زوجته في المقر. ..مرة واحدة، وفي غياب هذا المسؤول في مهمة خارج المحافظة، أُرسِل في أول مهمة للجيش الشعبي في الخطوط الخلفية للجبهة. عاد بعد عدة أيام منهاراً، اتصل بي فقمت بمعاينته في الدار، أعطيته حقنة مهدئة، وإجازة مرضية عن العمل لعدة أيام.

أصبح مُقلاً في حديثه مع الآخرين، غالباً ما يكتفي بالإشادة بموقف زوجته وواجباتها ومسؤولياتها في زمن الحرب الصعبة والتي تحتم عليها الخفارات الليلية المتكررة في المقر وبمقولتها الشجاعة: "نحن نتعرض لهجمة مجوسية شرسة، علينا جميعاً أن ندافع، أنت كرجل ومهمات الجيش الشعبي، وأنا ومهامي التنظيمية، خصوصاً وأغلب رجالنا في مهمات قتالية.

لا أريد أن أتَهم بالقصور في واجباتي تجاه التنظيم، تحدثنا يا حبيبي حمدان عن ذلك مراراً، فلم التكرار!"

يراقبها وهي تستعد للخروج وهو يقرض أظفاره بفمه مقرفصاً فوق إحدى مقاعد الصالة؛ ملابس الجيش الشعبي المشدودة تزيدها إغراءً وأنوثة. وتبقى طويلاً نفحات العطر الباريسي بعد مغادرتها؛ إنها هدية مسؤوله في عيد ميلادها الرابع والعشرين.

يظل يدور بين غرف الدار يبحث عن شيء لا يعرف ما هو، يأخذ كتاباً من على رفوف مكتبته، يظل ممسكاً به لفترة وهو يواجه صفوف الكتب المرصوصة دون أن يرى من عناوينها شيئاً. يطرق برأسه إلى الأرض ويضيع في متاهة لا يعرفها. يتحرك باتجاه مقعده من جديد.. يقرفص وهو يقضم أظفاره في نفس موقعه السابق.. مضتْ أكثر من ساعة والكتاب يتهدل من يده إلى حشية المقعد.

.. كاظم كان ينادمه في الليالي الخوالي ويشغل الوحدة الطويلة..

وصلت إليه تفاصيل عن انتماء صاحبه.. اختفى كاظم من داره إلى جهة غير معلومة بعد أن سجلتْ له زوجته شريطاً يهاجم فيه الأوضاع.. لقد تعرض كاظم في الحديث المنزلي إلى شخص الرئيس ذاته!!.. الرئيس!!

كان من يرى عائلة الصاحب المنكود هذا وزوجته، لا يخامره أي شك من أنهما وخمسة أطفالهما من أسعد العائلات في المنطقة.

"ها هو واحد آخر من بقايا الصحبة القديمة يختفي".

الصحبة القديمة الجميلة.

"كريم هرب بعد معرفته بانضمام حمدان إلى البعث وبعد أن علم بإلقاء القبض على سعدي ونوري وهيثم.

..هؤلاء كانوا ضحاياي! ولكن هل هنالك درب أخر؟!!

لكتابة قسيمة الانتساب! عليك بتدوين كل الأسماء! كل الأسماء المشبوهة، حتى لو كانت أسماء أمك أو أبيك".

"الولاء والطاعة، وإلا فأنت خائن للحزب. والخائن يعدم!. يعدم يا حمدان!!"

سرت قشعريرة جليدية في حبيبات جسده، ارتعش، ترك الكتاب يسقط وعاد إلى قضم أظافره وبدأ من جديد يلوك أطراف أصابعه ورأسه يهتز يساراً ويميناً.

زاد انكماشه وأخذ يختض بشكل أوضح.

***

كثر خروجها ليلاً وعودتها عند الفجر. خفارات متكررة. الكلام والعتاب الرقيق لم ينفع، بل ها هي تلمح بعد إطالة عتابه معها في إحدى المرات، إلى نقل تذمره إلى المسؤولين..

- ..ودعهم هم الذين يقررون الحل الأمثل، ولست ضامنة يا عزيزي أن لا تسوء العاقبة. أنا لا أؤكد سوء العواقب ولكن كل الاحتمالات واردة..

- ولكني يا حبيبتي أشتاق إليك في ليالي الوحدة تلك! ..لم أمارس الحب معك لأشهر طويلة، فأنت إما متعبة تعودين، أو لا مزاج لديك. أذوي أنا وأنت تتوردين وتعودين صبية كما كنت حين تزوجنا.

- قريباً يا حبيبي حمدان تنتهي هذه الحرب المجوسية. قريباً لا مهمات جيش شعبي لديك ولا واجبات في المقر تأخذني منك. لا تتذمر! كن رجلاً وتذرع بالصبر! واحمد ربك أني لا أزال معك رغم كل مهامي وظروفي.

***

ادور في سيارتي حول المقر الذي هي فيه.. أضواء المكان مطفأة بعد العاشرة".

"لعلهم الآن في أقبية المقر خشية القصف".

"لعلها عارية بين أحضانه... أحضان الرفيق الأسمر الوسيم؛ ها هو يرفعها من وركيها، يرفعها أكثر، كم خفيفة وسهلة الرفع في الفراش، جسمها الصغير متناسق ولدن كالهلام المكتنز الدافئ، دافئة دائماً، حارة... تصرخ من اللذة".

"نعم تصرخ هي الآن، تتلوى كسمكة بنيّة، بيضاء طرية ناعمة، تتأوه بحرقة، ها هي تبكي... يعاود احتضانها وضمها بشدة إليه، تتعلق بعنقه، تئن وتتوسل إلى المزيد... ها أنا أمد كفي إلى عضوي المنتصب".

"إنتبهْ! أنك تقف عند زاوية المقر المظلم؛ ها هو حارس المبنى يتقدم صوب السيارة المطفأة الأضواء. يزجرني سائلاً عن سبب وقوفي هنا بشكل يثير الشبهة".

"ماذا لو حدث ذلك فعلاً؟! ماذا لو أخذني من ذراعي وأدخلني المقر؟! هناك سيخرج إليّ مسؤولي الأسمر الوسيم ليستطلع الأمر.. يخرج هو بسروال بيجامته وبصدر عار مخدش متعرق. لابد أنها عارية على السرير هناك، تنتظره على مضض وتعض أناملها بشدة.. سأنكس راسي وأنا أقف أمامه مرتعداً.. اللعنة على هذا الخوف الذي يبعث فيّ الرعشة ورجفان الأصابع وتأتأة الكلام".

"وبعد هذا الموقف سوف أرسل من جديد مع وجبة أخرى لقاطع الجيش الشعبي إلى الخطوط الخلفية في التنومة. إلى سقيفة الصفيح الباردة، سقيفة الرعب. أجرجر الجثث المهشمة وأعريها".

***

" ترمي الشاحنة الجثث أمام باب السقيفة في ذلك الفضاء الموحش الذي يهوّم فيه عواء الرياح والذئاب وزمجرة الكلاب السائبة المتقاتلة على بقايا الأشلاء المبعثرة. يصمت الكون قبل القذيفة. يتزلزل الكون. ترنّ الأصداء المعدنية طويلاً. يرنّ الصمت الذي يعقبها ".

"يبقى الاهتزاز يبعث الرجفان في عضلاتي ومفاصلي لفترة طويلة. رنين الصمت يستمر طويلاً. يعود عواء الذئاب وزمجرة الكلاب المتقاتلة ".

"يسكن الكون ويصمت من جديد. يهتز الكون. يعاود الرنين صداه في عظام الجمجمة وتجاويفها. أظل ارتجف ".

صدى القذائف البعيدة يجلب معه صور الأشلاء الممزقة التي تتناثر فوق الربايا. في الخنادق الغارقة بالمياه الآسنة والدماء. أطراف مقطعة ومزق ملابس تطفو وثعابين وجرذان فزعة سابحة.

"أخرج أنا ومساعدي الفتى الجامعي الصغير. نجرّ الجثث التي لا تزال تحتفظ بمعظم هيكلها سليماً قبل غيرها.. ننزع عن الجسد المتصلّب الملابس العسكرية المتيبّسة بالدماء الخاثرة والأطيان.

أبذل جهداً كبيراً في إخراج الأكمام من الأذرع المعقوفة المتيبسة وأنا أحاول أن أُشيح ببصري عن الأعين المبحلقة المفزوعة ".

"تجابهني عين أحدهم، تتساءل بإلحاح قاسٍ.. يفغر الحجر الآخر المجاور كحفيرة بركانية. أغوص رغماً عني في أعماق الفوهة المظلمة متحاشياً نظرة

التساؤل المرير في العين المبحلقة الأخرى. أفلح بعد جهد وعرق بارد في نزع السترة المتيبسة".

"تظهر حفيرة كبيرة سوداء مشرشرة في الصدر، ملابس داخلية بدم متيبس داكن تلتصق بشظايا عظام مشرشرة".

"يبرز طرف ضلع مهشم أبيض من حاشية الفوهة الوسيعة".

أرتجف وأترك الجثة التي أحاول تعريتها، تسقط كجذمة شجرة منخورة.

أقرفص جانباً وأنا مشلول عن الحركة وأتابع دون مشهد واضح صاحبي المساعد وهو يكمل المهمة. عملية التعرّي، (الستربتيز) المرعبة تستمر دقائق. علينا بالإسراع فهنالك العشرات من الجثث تنتظر التعرية قبل عودة الشاحنة بوجبة جديدة من الجثث والأشلاء.. ينتزع صاحبي القلادة النيكلية من رقبة الخشبة المتنخرة، يسجل أرقامها في السجل الكبير الموضوع على المائدة الخشبية، أثاث السقيفة الوحيد،.. يبحث في الجيوب عن معلومات دالة أخرى عن الجثة، عن رسالة للوالدة أو الزوجة أو الابنة... عن قصة قصيرة أو قصيدة يائسة.. وجدنا العديد منها في جيوب الملابس الممزقة الدامية في أيام سابقة في السقيفة ذاتها.

البحث عن شيء آخر له قيمة ماليّة يكاد يكون دون جدوى في معظم الوجبات من الجثث، فهنالك من تولّى هذه المهمة بأمانة ودراية إما في الأرض العراء، أو من رافق الجثث في الشاحنة، فلا ساعة أو خاتم أو قلادة

ذهبية أو فضية تحمل آية الكرسي، حتى أغطية الأسنان الذهبية لم تسلم. أُساعد أخيراً في وضع الجثث.. نرتبها أكواماً متدرجة كي يسهل علينا وضع الجثة التالية فوق الأخريات. تقيأتُ في الأيام الأولى مرات عديدة وأنا أقوم في المهمات التي كان مساعدي يقوم بها في الغالب لوحده، خصوصاً حين كنا نعود لنجمع بقية قطع الأشلاء بعد أن نطرد الكلاب السائبة عنها.. نجمعها أولاً في أكياس أزبال كبيرة سوداء، ثم ننثرها داخل السقيفة.. نحاول ونفشل في معظم الحالات من لَمّ ذراع مبتورة أو قدم محروقة أو رأس مهشم إلى الجثث التي سحبناها في البدء إلى الداخل.

حين نيأس، نضع ذراعاً أو ساقاً أو أي عضو ممزق آخر إلى أية جثة غير كاملة الأطراف.. كان على رفيقي الصغير، أن يساعد في إعادتي إلى رشدي، إلى وضع شبه صاح بين الحين والآخر.. يخفف عني عندما أغيب في هستيريا البكاء التي تمسك بخناقي.. يمسح عني العرق البارد الذي أسبح فيه رغم برودة المكان.. يقدم لي قدحاً من الماء أغسل به وجهي بعد التقيؤ من فوق تل من بقايا الأجساد المتخشبة.

"كنت قد تعريت وأنا أصرخ. هرولت على مدارج الجثث المتراكمة، مددتُ جسمي فوق أعلى جثة، باعدتُ ذراعي كمسيح مصلوب.. نعم كمسيح مصلوب، لعل عذاباتي المحمولة فوق هذا الركام البشري الممزق العطن تكفي الآخرين عناء حملها.. أريد أن أكفّر عن ذنوبي أنا، قبل أن أحمل ذنوب الآخرين، أن أكفّر عن جثث أخرى لم يعرف مصيرها، كنت أنا

مسؤولاً عن ضياعها، وعن ضياع أصحابها، مثلما كنت مسؤولاً في قيادتها إلى ثورة الكادحين القادمة المحتومة. ألم أكن قائداً في تنظيمات كفاح مسلح!!... هو لم يكن مسلحاً بالضبط، لكنه سيكون مسلحاً لا محالة !!.. هذه حقيقة حتميّة جدليّة تأريخية!! "..

"نعم كنت مع آخرين نعد له بالعمل الفكري المبرمج، بالقراءات المكثفة، بالاجتماعات الدورية للرفاق. كل الخطوات كانت حتميّات جدلية. حتى إنتسابي إلى البعث حتميّة جدلية أخرى. والأسماء التي قدمتها إليهم ومصيرهم المجهول ألم تكن تلك أيضاً حتميّات جدلية تأريخية. وجودي فوق تلة الأشلاء تلك حتمية جدليّة أخرى لا تدحض.!!

أنا المسيح. أنا العذاب!!..!"

***

"ينزلني صاحبي بالقسر. يقوم بسحبي عن تلة الجثث. يلفني بدثار صوفي، كما تدثر بغيٌّ عارية خوف الفضيحة. يشعل ناراً للتدفئة ويضع إبريق الشاي.

يقدم قدحاً ساخناً منه لأحتسيه، يساعدني على ارتداء ملابسي من جديد، الأصح يُلبسني وأنا متراخٍ مشلول ضائع".

"لا لن أُطيل مكوثي قرب مقر الفرقة الحزبية أكثر من ذلك. دعها تختض وتصرخ من اللذة، دعها تتمرغ عارية فوق أغطية السرير العريض. لابد لعضو الشعبة من سرير عريض في المقر".

"وعَدها قبل أيام باصطحابها لمقابلة السيد الرئيس ذاته. وسيحدد قريباً موعد المقابلة لها كناشطة مخلصة متقدمة. قالت لي ذلك قبل أسبوع وهي تقفز جذلة أمامي حين عادت عند الفجر".

"دعها تتعرى... لتتعرى وتصرخ من اللذة، كم كانت لذيذة آخر مرة معي في الفراش قبل أشهر. إنها تختّض الآن في إحدى غرف المقر الوسيعة. يهزها البكاء، يختّض الجسد العاري المتعرق. ها هي تكركر جذلة وتحيط عنق جسده الأسمر المشدود بذراعيها. يقبلها وهو مسترخٍ".

"دعها تكركر. عيناها جذلتان دامعتان. ليكن! ثم ماذا! ألم تبعد عني حريق الجبهة والمهمة الأصعب".

لا، لا مهمات جديدة".

لا مهمات مع الجثث في الخطوط الخلفية مرة أخرى، لا عودة إلى سقيفة الرعب".

جثث اصدقائه.. ضحاياه، كريم ووليد وهيثم وكاظم تعاود الظهور. يحاول جرها إلى أعلى تلة الجثث المدرّجة، تحاول الجثث الزحف خارجة إلى العراء. يفلح في سحب كريم رغم احتجاجه المتمسكن المتوسل. يضعه متصالب الذراعين فوق أعلى التلة. يهبط ليسحب هيثم، يدير كريم وجهه المشوه بالحفر المتآكلة، ينظر إليه بعتاب. تفرد جثة كريم ذراعيها المتصالبتين على وسعيهما؛ مسيح آخر فوق التل!..

.. عذاب آخر!!

***

يقرفص حمدان أكثر ويتسارع قضمه لأظفاره. يهتز الرأس وينود إلى اليمين واليسار. يزداد اختضاض الجسد المقرفص في صالة البيت خافتة الضياء .. يسمر حمدان بمثابرة وإصرار في سحب أجساد صحبه القدامى الآخرين لأعلى التلة وهو يرتعد من فوق مقعده الواسع الذي تكور فوقه. يشد الدثار الصوفي الذي انحسر عن ساقيه.

.. تستمر الصور والأصوات الشبقية في بناية المقر..

..تنتحب زوجته بعد ضرام اللذة العارمة. تختض بكركرة جذل طاغية وتتعلق بعنق رفيقها الأسمر..

.. تستمر مدارج تلة الجثث والأشلاء بالتزايد..

.. أصوات جثث كريم وهاني وبقية صحابه تتحاور فيما بينها من تحت السقيفة. ..ترفع أصواتها محتجة..

.. تواجهه مجتمعة باتهاماتها..

.. صخبها يصمّ أذنيه..

.. يحاول الدفاع عن نفسه بصوت داخلي مخنوق.

أكفٌ مقطوعة، تبرز من تجاويف صدور دامية، تحاول الإمساك بخناقه.

***

زرتُ والدته لعلاجها الدوري، سألت عنه:

– هو فوق سطح الدار. هذه هي عادة جديدة بدأ يواظب عليها في الأيام الأخيرة. يبقى هناك وفي هذا البرد القارس ولساعات أحياناً، لا ينقطع عن الجلوس هناك حتى في الأيام الممطرة، وحين أسأله ما الذي يعمله هناك فوق السطح، لا يلتفت إليّ ولا إلى سؤالي، بل يروح يدمدم بعبارات وأصوات غريبة مبهمة لا أفقه منها شيئاً.

واصلت الأم حديثها الشاكي بلهجة حائرة:

– كثيراً ما يجلس في الصالة حين تغادر زوجته في خفاراتها الليلية إلى المقر، ثم يُطفئ الأضواء، ومن هناك تصل إليّ تمتماته ولغط الأصوات الغريبة التي يصدرها، وكأنه يتحدث إلى شخص آخر في مواجهته.

تركتُ والدته في حيرتها وصعدتُ درجات السلم، وحين اقتربتُ من نهايته، تناهتْ إليّ أصوات هامسة وتمتمات، سرعان ما انقطعت حين وطأتْ قدماي أرضية السطح.

جابهتني ريح شديدة البرودة.. وقفت في مواجهته. لم يبد عليه أنه قد انتبه إلى وجودي رغم أني كنت أقف على مبعدة متر واحد منه.

كان يقرفص في الزاوية المحاذية لأعلى السلم عارياً تماماً، ظهره إلى الجدار، وذراعاه تحيطان بأعلى ساقيه الملمومتين إلى فخذيه، خصيتاه تتدليان فوق الحز الفاصل لإليتيه اللتين كانتا تكادان تلامسان أرضية السطح..

.. كانت عيناه تخترقان قامتي التي تقف أمامه وتسيحان عبرها في فضاءات مجهولة خلفي.

ظللت أرقبه صامتاً دون حركة مني لأكثر من دقيقتين. كان في جلسته وعريه المتجمد فرعوني غير متقن الإنجاز.

.. استمر صمته وتجاهله لوجودي، ونظراته هي هي، تخترقني إلى المجهول:

- ألا تُحس بأي برد يا حمدان؟!

وصلت إلى أسماعه كلماتي بعد فاصلة غير قصيرة. رفع عينيه صوبي موجهاً نظرات غاضبة دون أن يُبدل وضع رأسه وجسده الثابتين:

- الله يا للعجب!..ما هذا الإزعاج؟ ألا ترى أني مشغول؟! ألا يستطيع الإنسان في هذا البيت أن يمارس حريته وطقوسه؟!

قال ذلك بلهجة استنكار حازمة، وعاد إلى صمته وإلى نظرته المصوبة إلى الآفاق المجهولة. وقفت أتأمله لحظات دون حراك، استدرت بعدها وعدت نازلاً بسهوم وحيرة.

***

كان صمت مطبق يخيم على العيادة الفارغة شحيحة الضياء.

استمرت وقفة حمدان أمام منضدتي بخيلائها وبالعينين المتلامعتين المتذبذبتين. نظر صوبي وأخرج من أحد جيوبه لفافة ورق عتيق مصفر.. وضع لفافة الورق فوق المنضدة أمامي، واستمر ينظر إليّ بذلك الجذل الباهر، منتظراً مني أن أُلقي نظرة عليها.

بدأتُ بفتح لفافة الورق الطويلة. استغرق فك الأسطوانة الورقية وقتاً وصلت خلاله نهايتها إلى السجادة الصغيرة تحت الطاولة.

.. خربشات يمكن أن تكون حروفاً هيروغليفية أو يونانية قديمة، خطوط ورموز؛ كلمات بما يشبه اللغة العبرية، تخطيطات لعيون تدفع الحسد في راحات كفوف مبسوطة، كلمات أو ما يشبه الكلمات مخطوطة بالدم، خربشات أخرى مخطوطة بماء الزعفران، رسوم لأعضاء ذكرية وأنثوية عليها وشوم دقيقة باللونين الأزرق والبني، دوائر متداخلة وأنصاف شموس بخطوط أشعة متعرجة، بقع دماء تغطي خربشات مذهّبة، صورة بدائية لفتاة بجديلتين خلفيتها أعضاء جنسية ذكرية منمنمة وحروف متداخلة يمكن تمييز كلماتها: (نور العين)..(نور العين! (..) العين نور(... وقت غير قليل وأنا غارق في متابعة تفاصيل اللفافة الورقية العجيبة..

.. رفعت عيني مندهشاً متسائلاً.. جابهتني نظراته الفخورة الجذلى، ثم علتْ وجهه ابتسامة متباهية وسيعة، وأتاني صوته وقد اخشوشنت وعمُقتْ نبراته:

– لقد انتظرتُ طويلاً حتى اكتملت كلُّ تعليمات الوحي، وها قد أتت الإشارة!!

أن أبدأ بالتبشير!!، وها أنا ذا أمامك!

..لقد اخترتك أنت لتكون أول من تأتيهم البشرى!.. كفاك فخراً أنك أول الصحاب المبشَرين وأول الحواري أيضاً.

ستكون أختي الصغرى هي الثانية في البشرى ورفيقة العمر في المسيرة الجليلة، ستكونهي مني بمثابة * (قرة العين) من ** (الباب).

سيكون اسمك الصحابي الجديد هو(الساعي)، فمسعاك في نشر الدعوة هو خير مسعى للبشرية جمعاء..

وسيكون الاسم الصحابي لاختي، لرفيقة عمري ومبشرتي منذ الآن هو (نور العين).!

أبشر أيها الساعي وعليك سلامي وفي نفسك المسرة!

ليحتفل الكون!

لقد كانت أمة العرب تحتفل أعظم احتفال بظهور شاعر..فكيف بها وهي تحتفل اليوم بظهور نبي؟!!.

* قرة العين: خليلة (الباب) وداعيته.

** الباب: المبشر بظهور (البهاء) (نبي) البهائية

يا رمز المعالي

أفلت حامد من الباب المشرع إلى الزقاق بملابسه الداخلية وبغترته البيضاء وعقاله الأسود. رفع عقاله وكوفيته بيده اليمنى وأخذ يقفز، دائراً نصف دورة، تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال وهو يدبك هازجاً:

"مأمونة دار السيد.!"

"محروسة دار السيد".

"دار السيد منهوبة ".

"دار السيد مسلوبة ".

ها ها ها، إخوتي:

"دار السيد منكوبة".

"ودار السيد!!"

كرر المقاطع دابكاً هازجاً وهو يهزّ عقاله وغترته عالياً فوق رأسه حتى اختفى عند زاوية الزقاق.

..ما هي إلا لحظات وستخرج هُدى فارعة الرأس دامعة العينين، هارعة إلى نهاية الزقاق تصرخ بلوعة:

"حامد وينك يا خيي يا حامد... كَطيعة تكَطعني...

..يا أهل الرحم ما أحد شاف ها المسكين؟"

"وينك؟!..."

يرقب ويسمع متراخياً ما يدور في الزقاق من على كرسيه وحوله دثاره.

قادته متكئاً على ذراعها وأجلسته برفق قرب إفريز السطح ليتشمّس.

يكاد يتكر مشهد الأمس نفسه. لا يجد انفعالاً مميزاً نحوه. ساقاه متراخيتان، لا إحساس بوجود حوضه فوق كرسيه؛ نصف جذعه العلوي عجيزة نخل متعفنة خاوية، طعم صدِئ يملأ فمه، لسانه قطعة خشب ثقيلة متيبسة، عيناه ثقيلتان جافتان تنظران بكلل إلى مساحة رؤية أمامية محدودة، طبقة شمعية فوق وجهه وجبينه، شعره قطعة غريّن ثقيل متيبّس.

.. يتدحرج مكعب من الصور المقطّعة، مكعبات ومخاريط ولفائف إسطوانية ملونة تعوم في صندوق عظمي أجوف مملوء برنين هلامي، أصداء معدنية رتيبة.. شريط مقطّع لصور متراكبة تتبدل أجزاءها فتصنع مقاطع جديدة، يلتصق

المقطع بمقطع سابق أو بمقاطع لاحقة، يومض بعضها برقاً ويخبو مخلفاً خطوط شحنات مشرشبة، خلفيات صور زرقاء ورمادية وحمراء وفضاءات لا لون أو حدود لها.

..مكعبات لأحداث وحكايا وأقوال مرصوفة تتراكب بهيئات هرمية تتعالى وتنفرط متدحرجة لا يستطيع متابعتها.. لا رغبة بلمّ أجزائها من جديد.. يختفي الهرم، تترامى على السطح الأجوف بعض من مكعباته بأشرطتها المصوّرة. أصداء سقوطها يحدث ضجيجاً مكتوماً.

يزداد إعيائه، يتدارك فوضاه، يهرب منها بالتحديق المركّز بمساحة الرؤية الأمامية المحدودة؛ مثلثات وحلزونيات وأشرطة وخطوط متقطعة، رسمة بحبر أسود مخفف على صفحة واجهات البيوت.. فوّهات فارغة في الجدران المحبّرة، شبابيك عوراء ببقايا ثلم زجاج.. أبواب مخلّعة متشققة.

يتدحرج مكعب آخر مفروشاً أمام شاشة الوعي:

وجوه مسوّدة تدبُّ كسولة ضجرة في شوارع شبه مقفرة لها رنين صمت حزين يتجاوب صداه بين أعين المارة أو أولئك الواقفين بملل وكآبة قرب الأبواب أو وراء الشبابيك المحطمة.. تزوغ أبصارالجميع في العدم..

– يوم تسوّد وجوه... الله لا ينطيك بحق هاي الغيمة السودة، شوفي أم فاروق شوفي شلون اظلمّت الدنيا، هاي غيمة لو غضب أسود.

– والله أم أحمد من يوم غيمة الجراد الصفرة والغيمة الحمرة اللي خنكَتنا بالرمل الأحمر من خمسين سنة ما شفنا مثل ها الشي. يومها أذّنت كل المآذن، وبدأت قراءة التسابيح والأدعية ليوم القيامة، وأمي المقعدة تصرخ من غرفتها "هذي علائم ظهور صاحب الزمان، بعد عيني صاحب الزمان!!".

– والله وما يصدقه العقل. مطر أسود، مطر أسود لطخ كل البيوت، صخام يُمه! هذا مو مطر، شوفي!! شوفي! تلطّخ صبغ بيتنا الجديد، وبيتكم وبيت أم هاشم.

– هذي عمايل مضروب الجلوة أبو "أم المعارك"، حرائق نفط الكويت وصل دخّانها لبيوتنا.. هذي صارت "أم المصاخم"... "أم الملاطم".

- بالله ستري علينا أم فاروق يروح يسمعنا أحد!

- الكل تشتم علني وبكل مكان. شنو اللي بقى ينخاف عليه، أحمد وأخذته "القادسية، بوابة القائد الشرجية" ومحمود لليوم لا حس ولا خبر من بداية الانسحاب المظفر. وشوفي هذا جارك أستاذ حامد أخو المسكينة هدى، مدرّس محترم تْجننْ من يوم هزيمة البطل المنصور. وهاي هالتشوفين طبكَتْ عند حامد، خْبالْ تمام. يمّهْ ما تحمّل الكل يموتون، يحتركَون وتاكلهم الجلاب وهذا باقي.

***

يختنق برغبة عارمة بالبكاء، لا يطاوعه كيانه المخذول الواهن ولا مآقيه المتيبسة. أهي الكآبة التي تخذله أم هي برشامات الكآبة التي يحضرها جاره طبيب النفسية.

ينحني عليه بوجه فأر كبير ذي شارب هتلري.. تنطّ حدقتاه الوسيعتان عبر زجاج عويناته الثخينة فتسقط متدحرجة على وجهه، لا سبيل لإزاحتهما عنه بكفه. يزيح بصره يساراً.. تسقط الحدقتان وقد تدحرجتا يميناً..

– ستفيدك هذه البرشامات..سيزول هذا الكسل والخمول واللاأبالية بعد حين!.

يغافله الفأر ذو الشارب الهتلري بين الكلمات ويلقي ابتسامات مبهمة وتتدحرج حدقتاه إلى الأخت الشابة. يخرج الفأر الهتلري ويسحب حدقتيه معه.

– ساعديني على النهوض رجاءً إلى الحمام!.

– لماذا ألقيت البرشامات في المرحاض؟

– لا أريد أن أصبح مدمن أفيون. لا أثق بهذا الجار الفأر.

يواصل التحديق في حقل رؤيته، الواجهات وبوابة بيت هدى وحامد أمامه.

تسري قشعريرة برد فيحكم إزاره حوله بكلل. تعبر فوق السطح بقع ضوء من شمس تتنقل عبر غيوم بيضاء. يتابع انتقالها إلى سطح بيت هدى ثم

تسلقها جدار بيت الراوي. يجهد، يلملم كل بقايا حطام إرادته، يحاول البكاء.

... يعز البكاء. لا بكاء! اصرخ إذاً! اصرخ بأعلى صوتك!! يصرخ في العراء، تخرج الصرخة فحيحاً رتيباً ثقيلاً، لا تتعدى الفم المتراخي المفتوح فتنزلق..

تسقطالصرخةُ في بئرٍ،

دوّامة الصمت متاهاتٌ،

لا رنّةَ للصوتِ،

عبثاً يبحث عبر البصرِ

المخذولِ عن ذاتهْ

على أرضيةِ السطحِ.

يشد قواه، يعيد البصر في رسومات السخام المذاب على واجهات البيوت المتصدعة أمامه.. يستعيد مكعباته ومخاريطه الملونة، يحاول أن يركب منها هرماً.. تنفرط المكعبات وتتدحرج.

***

شاحنات عتيقة متربة تحمل أسمالاً ممزقة لملابس داخلية قذرة وضعت فوق هياكل بشرية متراصة، ضامرة، معفرّة، تائهة الأبصار.

تقف الشاحنة.

تتساقط الأشباح المهلهلة نصف العارية فوق أرضية الشارع الأنيق.

..ينفرط الحشد فرادى ومثان ومجاميع صغيرة تطرق الأبواب وتصرخ:

" ميّ! كسرة خبز! سِتر! "

" سِتر! يا أهل الرَحَمْ الله يستركم!! هِدمة زايدة! نَعل عتيق!! سِتر سِتر!! الله يستركم أهل البيت".

يتكرر المشهد بعد ساعات، وفي اليوم الذي يليه.

في الأيام التالية، تقل أعداد فلول الجيش الغازي المنكسر.. تقل الشاحنات التي تحمل المتسولين العراة.. فولول أم معارك القائد.. فلول المهانة!

***

يفلت حامد من سجنه من جديد بسرواله الداخلي، يمشي بجدية وحزن في الزقاق، يلطم صدره العاري بكفيه ثم ينزل ضربات قوية بقبضة يده فوق رأسه.

"طوطو حيدر! طوطو حيدر! طو طو طو طووو، حيدر!

" يختفي من الزقاق.

تخرج هدى حافية القدمين "وينك يا مسكين، يا..."

يزيح تراكيب مكعباته وأسطوانات صوره الهرمية فتنفرط مبتعدة. لا يجد أثراً لها فوق أرضية السطح.

"وأنتَ لـ سبيت أهلِ البلدْ".

"عجبْ أنتَ لـ ما تِنسبي".

يحاول مرات ومرات. يخرج الصوت أخيراً كشخير حزين مكتوم.

ينشط بصره فتتسع مساحة الرؤية.. ينجح بلفّ رأسه إلى حدود بيت الشيخ (مسعد) على يساره وإلى حدود سطح (العبيدي) عن يمينه. يستند على الإفريز الحديدي ويجهد في رفع جسده عن كرسيه.. يسقط المئزر عن أحضانه، ينجح في الاتكاء على السياج، تلوح معالم ابتسامة باهتة على شفتيه، يحاول ويفلح في أخذ نفس طويل عميق تعقبه حسرة طويلة، تختنق بنشيج متقطع يستطيع هو سماعه.. تندى عيناه، تترطب، تزداد ابتسامته سعة.

يعود محمود.

"ابتعدنا في الليل عن مسار الفلول المتراجعة عبر الطريق الرئيسي... أفراداً هائمين، جائعين مقرورين. كانت الأرزاق قد قطعت تماماً ليومين قبل الاكتساح.لم يكن الجو رحيماً؛ برد ومطر.

..ضباطنا وآمرينا استولوا على الشاحنات والعربات الموجودة في الميدان.

.. كان العراك فيما بينهم شرساً على العجلات الأسرع.

..في مدينة الكويت، التي مرت بها القوات المبعثرة لم تبق وسيلة نقل لم تختطف حتى الدراجات الهوائية والتراكترات... الكل: "وينِك يا روحي!" " كنت على يقين بأن الطائرات ستلاحق الفلول على الطريق العام. كان الرتل الفار على مسافة بضعة كيلومترات عنا حين حلت الكارثة.

.. أرتال متعاقبة من الطائرات.. النيران والحمم التي تصاعدت كانت تذكرني بغيمات فطر التفجيرات النووية، لكنها كانت على حجم أصغر وبسلسلة متواصلة من مؤخرة الركب وحتى نهاية مقدمته البعيدة..

..كنا منبطحَين على وجهينا، حين أبرقت ثم أرعدت وتلى ذلك عصف شديد زلزل الأرض من تحتنا وغُمرنا بكثيب من الرمال..حين استطعنا النهوض كان القصف متواصلاً على مسافات أبعد من مسار الطريق العام المفترض..

.. ساعتان لا غير، خيم بعدهما صمت يقشعر له البدن..

قبل ذلك كنا نسمع دبيب الحياة في ما يصل إلينا من وشوشات العجلات الفارة..

.. لا نأمة تسمع الآن، حتى صفير الريح تجّمد.

فضول رائحة الموت الخفية تجعلك تهتز هلعاً وشوقاً لاستكشاف المجهول في المقابر، رغم هلعك تبحث عن حفرة مظلمة تقف عند حافتها، تمد فيهاّ بصرك إلى أعمق أعماقها؛ إلى ما تحتها!

اقتربنا حذرين، هبّت علينا رائحة شواء نفاذة بعبق الموت، تقيّء صاحبي.

أكان ذلك خوفاً أم قرفاً؟!

..كتل بشرية متفحمة سوداء تمتد على طول الطريق الممتد إلى أبعد نقطة في البصر..

أكثر هياكل الشواء كانت منكمشة متقلّصة..

ما كان منها في مركبات، اختلطت بقايا اللحم والعظام المسودّة منها بالحديد المنصهر..

لا شك بأنه أطول سيخ للشواء في تأريخ البشرية!!

كانت هنالك أجزاء كثيرة منفصلة محترقة متناثرة على جانبي الطريق.

.. أذرع وأنصاف رؤوس.. أقدام بأحذيتها أطارها عصف الانفجار مسافات.

استمر قيء صاحبي وقد تهالك على ركبتيه، غطى وجهه لمدة طويلة قبل أن أمد يديّ لأنهضه، مشيراً بصمت إلى ضرورة مواصلة السير. كيلومترات طويلة وعديدة والصورة تكاد تكون هي الصورة.

رغم محاولتنا أن يكون مسارنا بعيداً عن سيخ الشواء الطويل الممتد عبر الصحراء، كنا نقوم حذرين باقترابات جديدة نستقصي فيها عن قرب نهاية مشهد الجحيم هذا.

لا قرار ولا نهاية للجحيم!

خفّت الرائحة قليلاً، لكنها وقبل ذلك، كانت قد استقطبت مئات الكلاب الضالة وربما تقاطر البعض منها من مدينتي الكويت والعبدلي للمشاركة في وليمة القائد الحاتمية الكبرى.

أشرت على صاحبي بالابتعاد عن الطريق الرئيسي والإسراع على أمل الوصول إلى مشارف مركز حضري قبل حلول الظلام وقبل أن تشارك قطعان الذئاب لأخذ حصتها من الهِبة العليّة. أضف إلى أن بعضاً من الكلاب المستثارة بالروائح قد تفضل لحماً طرياً بدلاً عن آخر متيبّس محترق.

***

في (العبدلي) استطعنا المقايضة بكنزاتنا الصوفية مقابل بعض الأرغفة.. في مشارف الزبير وبعد مسيرة نهار كامل، كانت المقايضة بغطاءين صوفيين للرأس وفي أطراف البصرة بقمصلتينا.

استمرت عملية التعري حتى وصولنا إلى أطراف(الكوت) وبعد عشرة أيام من الإذلال والبرد والجوع والأقدام المتقرحة المتورمة، لم يبق خلالها خرنوب ولا أشواك طرية لم تعلف، وحين لا يكون هنالك شيء يمكن أن يغذّي أو يطرّي فمنا، كنا نضع في أفواهنا حصى نمصّها ونقلبها في أفواهنا.

على مشارف المدينة كانت هنالك شاحنات في الانتظار ولك أن تتصور فيض سعادتنا حين لمحناها عن بعد.

.. لقد اغرورقت عيناي على حين أجهش صاحبي بالبكاء بشكل هستيري.

***

– سننتظر آخرين قادمين حتى تمتلئ الشاحنة سنوصلكما مع هذه المجموعة من رفاقكم إلى أحد أحياء بغداد الغنية، هناك الخير كثير، ومن يسكن في مدينة أخرى سيجد من هناك منفذاً ووسيلة. ''الله ما يكطع بعبده'' لكن أجور التعب والطريق مطلوبة ''مو هيج؟؟ أنتم زين تَعَرفون شحة البنزين والمواد الاحتياطية وكل لوازم الشاحنة، أنتو زين تقدرون إحنه هم ورانا بيوت وعيال فاتحه حْلوكهَ''. أشار بعينيه وبحركة رأس خفيفة إلى ما تبقى فوق جسدينا!

– والريح والبرد في هذا الشتاء الزمهرير؟ تساءل رفيقي.

– أنتو شباب، ما شاء الله زلم خشنه! راح تتراصفون باللوري وواحد يدفي اللاخ''.

وخلعنا عنا آخر ما يمكن خلعه، بنطالينا وأحذيتنا.

كانت هنالك شاحنة كبيرة قريبة يُجمع فيها كل ما يمكن جمعه من الأسلاب.

***

تدحرجت أسطوانة مصوّرة بتقطيع بطيء، أمامي الآن سكان شواطئ المانش الإنكليز هم وقواربهم في عتمة الليل، آلاف تعبر لجة البحر إلى (دنكرك). حتى قوارب الصيد الصغيرة سارعت لنجدة القوات المحاصرة

***

أتابع حامد وهو يفرّ مرة أخرى من محبسه، ولكنه في هذه المرة كان في كامل قيافته، بدلة عاتمة زرقاء، حذاء من الروغان اللماع، غترة حريرية بيضاء وعقال أنيق أسود. مشى مختالاً بعد أن عدّل حواشي غترته ورفع رأسه بشموخ وعلا صوته:

- أمجاد يا عرب أمجاد. في المحنة كرام أسياد... أمجاد يا عرب أمجاد!!

استمر في إنشاده إلى أن اختفى عند زاوية الزقاق. علا صوت هدى مستنجداً مناشداً:

- وينك يا مسكين، وينك؟!

***

الجو غائم، لكنه في نفس مكانه من السطح، يجلس فوق الكرسي ذاته غير أن الدثار الذي يلتفّ به كان أكثر سمكاً. عيناه ما زالتا مشدودتين إلى الأشكال التي رسمها سخام المطر الأسود على واجهات البيوت أمامه، لم تتبدل حدة حواشيها ولا هيئاتها حتى بعد أن غسلها مطر الله المألوف، لابد أن ما حملته تلك المطرة المشؤومة كان حبراً صينياً مخففاً!

باب بيت هدى أمامه لم ينفتح ليومين، ولم يظهر حامد في عروضه الغريبة في الزقاق، لم يستطع الإفلات، يبدو أن الأقفال قد أحكمت عليه أكثر من السابق.

تتضبب رسومات الواجهات المحبرّة أمام عينيه ثم تتلاشى. تطفو أهرامات مكعباته وهيئاته الأسطوانية وتنفرط، فارشة أمام شاشة وعي الذاكرة مقاطع أشرطة مصورة تختلف درجات وضوحها.

***

إرتجّ البيت في زلزال عاصف صاخب وتناثر زجاج النوافذ. وجد نفسه وزوجته مرميين عن سريرهما فوق أرضية الغرفة، يلمس أحدهما الآخر في حلك الظلمة.

- أأنتَ بخير؟

- أأنتِ بخير؟

أمسك أحدهما كف الآخر وبدأ البحث الصعب في حالة الانشداه تلك عن الباب.. دون أية كلمة توجها إلى الغرفة الصغيرة المنزوية المجاورة، جلسا في الظلمة على التخت المجاور لبابها بصمت، حتى استردا نفَسيهما.

- لقد قصفوا برج المرسلات والاتصالات على الأرجح.

وكان الأمر كذلك.

- ألم أقل لك أنهم سيضربون! قالت بصوت مرتجف واهن.

- لم أكن أتصور أنهم جادون في القضاء على أكبر حليف لهم في الشرق الأوسط.

لم يكن برج المرسلات ذاك يبعد عن المنزل بأكثر من مئة وخمسين متراً. وليته البقعة الهامة الوحيدة.. بضع عشرات من الأمتار عنه، (يشمخ) مجمّع المخابرات الضخم وعلى مبعدة أقل من مئة متر يمين الدار، معسكر تدريب جنود المخابرات والاستخبارات ودائرة الانضباط العسكري..

خلف الدار بمئتي متر

مجمع بيوت الوزراء وساحة الإعدامات (بالطبع تحت اسم ساحة التدريبات الخاصة).. كثيراً ما كانت تصل إلينا منه لعلعات الرصاص قبل آذان الفجر. وهكذا لم يكن قصف المرسلات الصاروخي هو الزلزال الوحيد الصاخب تلك الليلة.

***

عند الصباح وبينما كان يحاول أن يسد بعض ثغرات النوافذ بصفائح كارتونية، ويعيد درفة الباب الرئيسية المخلوعة إلى موضعها بدت مظاهر حركة هجرة جماعية من البيوت المجاورة.. تقدم أحد الجيران منه متسائلاً في حيرة "لا أراك في عجلة لمغادرة المكان؟"

ذهبوا إلى مدن أهاليهم أو أقاربهم، هذا إلى (راوه) وذاك إلى (الفلوجة) و(عانه) و (النجف) و (الخالص).

***

لم يمنع تحصين الغرفة المنزوية الصغيرة من أن تُزخرف أعالي جدرانها بالشظايا وأصبح الوصول إلى المرافق الأخرى في البيت خطراً خصوصاً في ساعات الليل، غير أنهما كانا محظوظين، فركن المؤونة والحمام لصيقين تماماً بالغرفة الصغيرة وأصبحت مدفأة علاء الدين داخلها هي المخبز والفرن والطباخ ومصدر الإنارة علاوة على التدفئة في ذلك الشتاء قارس البرودة.

كان يوصل زوجته إلى مكان عملها عبر شوارع شبه مقفرة، وهي ترتجف هلعاً طوال الطريق من أصوات القصف المتفرقة. بعد انتهاء عمله يعود لأخذها، صامتة مفزوعة طوال الطريق. أسبوع، اثنان من القصف والرعب، وتمرض؛ إسهالات، وقيء، أنزفة رحمية متكررة، أقسام الطوارئ في المستشفيات على أشدها زحاماً وأسوءها خدمة. يصاب بالفزع خوف فقدانها. ‘‘أما من فرج، أما من خلاص؟! متى تزاح الغمة؟! متى ينتهي وتنتهي معه حروبه اللعينة؟ يا رب ليتني أكون مخطئاً وأنهم جادون فعلاً في الخلاص منه، يا رب!’’

تستمر الحمم والصخب الهادر والوميض الفضي اللامع، واحتراق السماء باللهب الأحمر الذي يليه. الشظايا التي كان يلمها عند الصباح كل يوم من الغرف والسطح والتي كان يضعها في وعاء خزفي، زاد وزنها عن ثلاثة كيلوغرامات. يتشاءم من جمعها، يدفنها تحت شجرة زيتون في حديقة المنزل..

..أصبحت الحديقة المكان الآمن، غير الموحش الوحيد لكل كلاب المنطقة، كانوا ونيسهما، شاركوهما في الزاد العسير وبترحاب، فقد أقفر الحي من سكانه..

.. كثرت الضحايا، وعادت قطع القماش السوداء معلقة هنا وهناك..

.. عادت قوافل جنازات القادسية الثالثة إلى الظهور.. النعوش المارة إلى مقبرتي الفلوجة والنجف تعبر مسرعة أمام داره.

يضع يده في يدها حتى تستطيع بعد جهد أن تغفو على التخت الضيق في السويعات القليلة حين يبتعد القصف، يمد جسده على فراش مجاور على الأرض وينصت من مذياعه الصغير إلى إذاعات العالم..(مونت كارلو) الـ (بي بي سي)، القاهرة، عمان.. الكل يناشد القائد الصامد على القبول بأحد عروض عديدة لانسحاب مشرف ودون شروط مجحفة.

"يا رب!" آلاف في مثل حاله أو أسوأ منه، ملايين تدعوا وبحرارة من الأعماق أن يستجيب. صامد، صامد عنود بطل. وليس كل العناد حمق! ..فالضحايا ليسوا إلا قرابينه!

الإنذار الأخير! ستعبر قوات العالم المدجج بكل بدع الموت الجماعي، ستعبر عند منتصف هذه الليلة على حشوده من الجياع المقهورين والمرتجفين برداً وهلعاً. حشود مسكينة لا خيار لها في أشكال الموت التي يُزج بها دون قضية أو هدف مقنع. لا، بل وكل ما هو شائن وعدواني.

..لا خيار لهم في الحياة!

.. لاخيار في الموت.

.. في ساعة الهجوم، جاء أمر الانسحاب من(محافظة) الكويت.

ينصت إلى الخبر: ‘‘بتدخل عاجل من الأمم المتحدة وبعد الموافقة على الانسحاب الفوري الكامل من أراضي الكويت، سيتم وقف القصف على مدينة بغداد في الساعة الثالثة والنصف بتوقيتها المحلي...’’

– أسمعتِ، أسمعتِ يا حبيبتي إنها نهاية المحنة والطاغية.

سنستمع معاً غداً صباحاً إلى البيان الأول لحكم جديد يعلن نهاية الحروب والمذابح والقهر.

غداً مهرجانات الناس في كل زاوية من البلد الجريح. احتفالات حتى في تكريت والرمادي.

بدأت الحِممْ تنهمر على محيط سكناه. ليلة ولا كل تلك الليالي المزلزلة كأنهما هما فقط مركز تلك المعركة.. ارتجاج ضخم، مادَ البيت من تحته في اتجاه وعاد إلى مكانه، مع استمرار اهتزاز خفيف أعقبه. أحس بأن لم يبق أي باب إلا وانخلع، وتطايرت آخر الشظايا الزجاجية العالقة في زوايا النوافذ.

"لابد وأنه انهيار الجسر المعلق غير البعيد!!"

كثرت الشظايا التي كان يُسمع أزيزها وارتطامها بعد وميض الانفجارات وهزيمها، مخترقة طبقات الألواح الخشبية التي تدعم النوافذ العارية..ألواح لا تتعدى وظيفتها الإحساس المخادع ببعض الطمأنينة.

.. يسمع اصطكاك أسنانها..ويزداد اختضاض كفها المتمسكة به..

.. يسمع صرير خوف خشب التخت المرتعش تحتها.

يرمي بجسده فوقها ويحتضنها بعطف بالغ.

.. يقل اصطكاك أسنانها ويخف اختضاضها. تغفو أخيراً، أو هذا ما خيل إليه. يتوقف القصف في الثالثة والنصف فجراً. صمت له رنين، لقد توقف القصف يا حبيبتي!!

دعها في نومها. ساعات قليلة وأوقظها على نشوة البيان الأول لعهد حكم جديد، حكم لا يمكن إلا أن يبث الأمل في ملايين المذلّين المهانين. سيبزغ فجر أمل جديد.

..يغفو ساعتين.. الساعة تقترب من السابعة.. يدير مفاتيح المذياع..

يجد ضالته أخيراً.. الصوت مشوش قليلاً ولكنها إذاعة بغداد.

- اصحي يا حبيبتي... اصحي ولنستمع سويةً!!

لا جواب!

يكرر بصوت أعلى ونغم أرق.

- اصحي لنسمع البشرى!

لا جواب!!

يهز الجسد البارد، يهزه بذهول. يعلو صوت المذياع بنشيد الجوقة:

" إلنَهَ الَنصِرْ والنَصِرْ غالي، صدام يا رمزْ المعالي ".

***

الفهـــرس

لحظةُ العمرِ الإضافية ٥

عائلةُ آل جويران ١٧

إنها الثالثة بعد منتصف السابعة والثمانين ٤٧

مسعـودة ٦١

الحمّى ٩٧

القذيفـة ١٠٩

ظهورُ نَبي ١٢٣

يا رمز المعالي ١٥٥

الفهـرس ١٨٠

***

المؤلف بريشته

كما يقول النقاد أن مسار القصة اكثر تعقيدا من القصة ذاتها .
هذه القصص المكتوبة بوضوح كامل، تعبر عن مسار آخر للقصة ومسار آخر للسرد، يذكّر متانة اسلوبها، وحبكاتها الرائعة، وبراعة سردها، وبناء شخصياتها، ونمو احداثها باساطين القصة في العراق مثل فؤاد التكرلي وغائب طعمة فرمان ومحمد خضيّر . ستبقى القصة العراقية من أهم انجازات التجربة في العراق، هذا الفن الذكي الصعب واللمّاح بحاجة الى كتاب انبياء في فكرهم ولغتهم .
وهنا يقدم فلاح الجواهري مجموعته القصصية الجديدة كاضافة حقيقية لفن السرد العراقي ولطبقته الاولى .

علي بدر

ISBN 978-9922-628-33-2
9 789922 628332
SUMER
Printing, Publishing&distribution
سطور
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
009647711002790
Email: bal_alame@yahoo.com